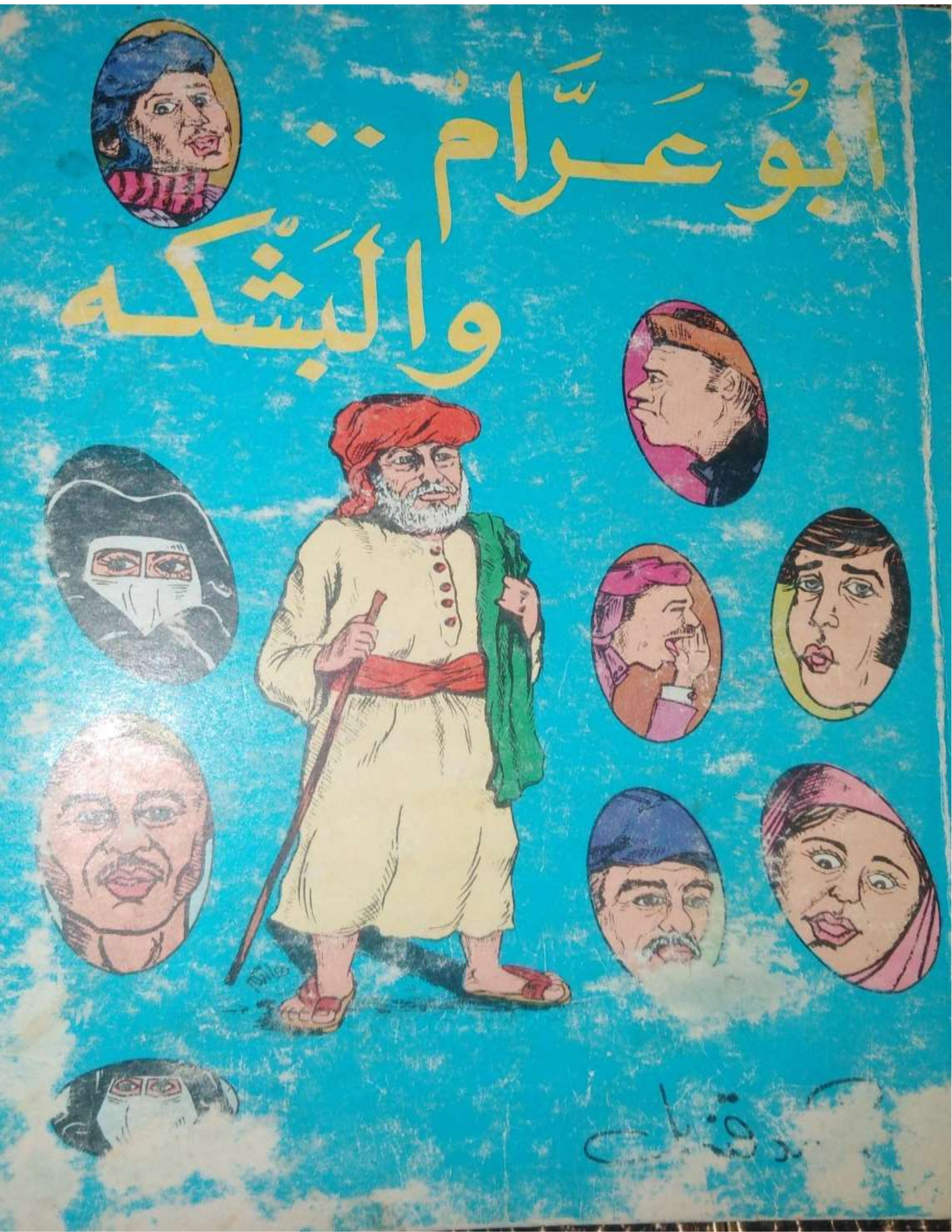

ابُو عَرَّامْ ..
والبَشْكه



منعاً للقال والقيل .. فاننا نؤكد للجميع
ان الأسماء التي وردت في كتابنا هذا
جميعها حقيقية اصلية - ليس من بين
شخصياتها بنات خيال - أو اولاد حرام -
كما ان الحال كذلك بالنسبة للاماكن -
والتسميات الاخرى - ولا فضل لنا في ذلك
كله .. اللهم - اللهم - الا التسجيل والزركشة
الانوار ... ية لبعض الابازير التي
تشذ عن الطعام .



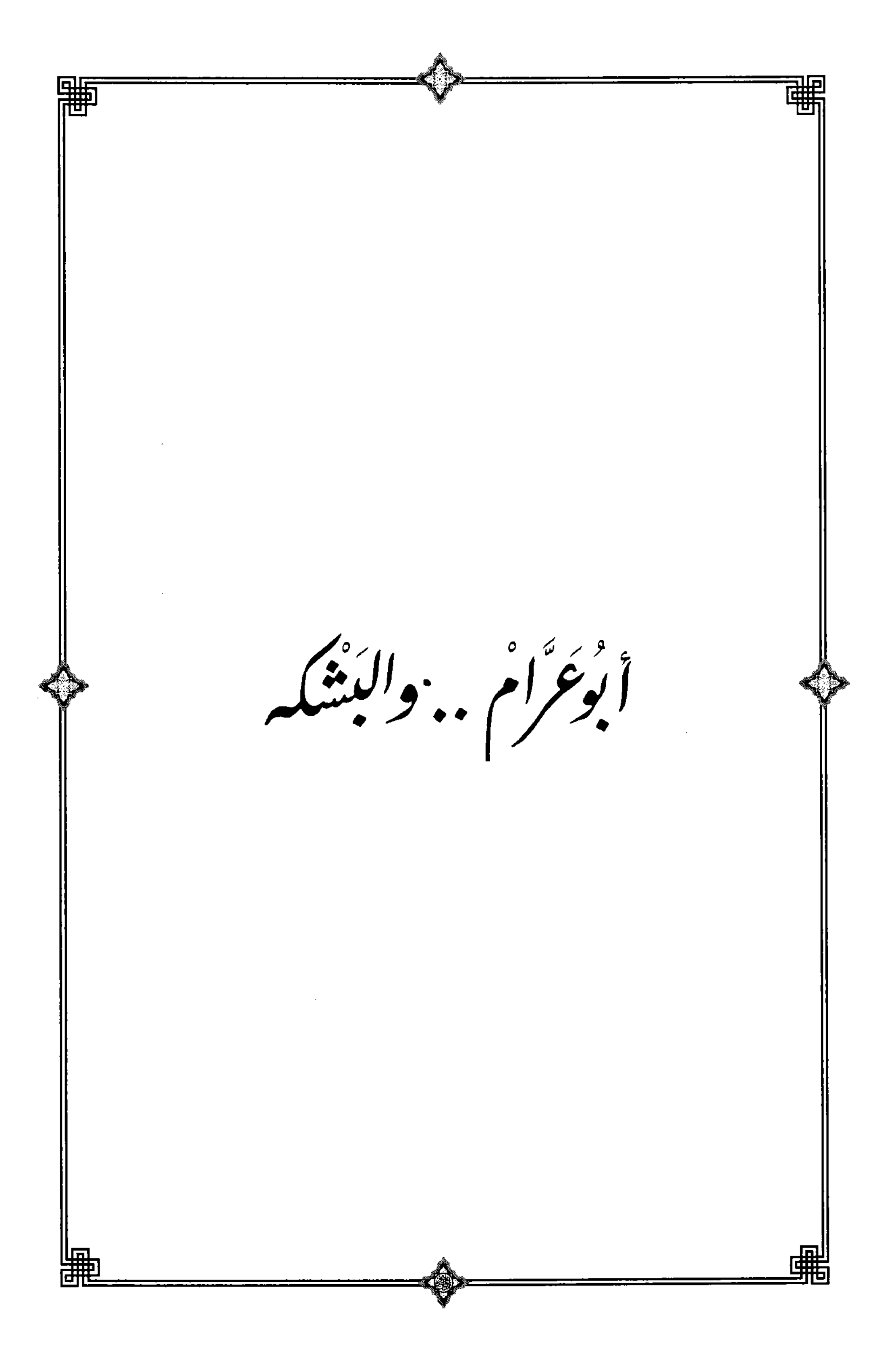
أحمد قنديل

يقدم

أبو عَرّام وَالبَشْكَه

مؤسَّسَة قَنْديل التجاريَّة





أَبُو عَرَّامْ .. والبَشْكه



أَبُو عَرَّامْ . . والبَشْكه

.. تؤكد الرواية الشعبية على لسان الثقاة من أهالي وسكان محلة المظلوم بمدينة جدة، إنه كان إذا خرج إلى الحلقة بعد صلاة الصبح في الشافعي كانت أنظار الموجودين والمتسوقين بها تتجه رأساً إلى ما يرتديه في يومه.. فإن كان قد وضع السجادة الصوفية المرقطة على كتفه الأيمن فمعنى ذلك أن نهارهم سينقضي في عراك وضرب وصراخ لا يهدأ.. حتى بعد منتصف الليل!!

ذلكم.. هو إبراهيم خليل الكلاش.. الشهير بأبو عرام.. والمولود ببلدة جدة في منتصف العشرينيات الهجرية.. بالعزلة ذات الدورين الكائنة غرباً أمام زاوية المظلوم نفسه ـ الزاوية التي جعل منها أهل الكار والضلال بؤرة للبدعة المستوردة ـ حيث كانت تقام فيها كل ليلة جمعة حلقة الذكر المستقبحة والمنقرضة.. يتمايل فيها الرجال الغائبون عن صوابهم.. ويغني بها الفتيان المفتونون بشبابهم.. والتي لا تنتهي إلا بإحدى الهوشات الليلية.. حين يصل إلى المحلة رجال وفتيان وعبيد من محلات اليمن والبحر والشام لحضور حلقة الذكر المعتادة!!

.. وكان والد أبو عرام.. الشيخ خليل من كبار المولعين بتلك الحلقات المجنونة يهدر بعضاً من كسبه الوفير نوعاً ما على أهلها في

الولائم والسهرات كما كان حريصاً على اصطحاب ابنه إبراهيم «أبو عرام» في غدواته وروحاته.. فنشأ الغلام متأثراً بالبيئة.. متشبعاً بالوراثة.. ولا همَّ له إلا الاختلاط.. والتفاف الناس حواليه.. والصرف عليهم دون حساب!!

وحين توفي الشيخ خليل بعد إصابته في رأسه بضربة شون مزقر.. حل ابنه أبو عرام مكانه في مشيخة الحلقة.. وكانت أعوام مشيخته الأولى بشهادة أهل الخبرة أعوام رخاء كبير فقد ظلت فيها الأمطار تهطل بغزارة مما نتج عنه طلوع الشقلا بقلا خبيزه.. حول مقبرة امنا حواء بشكل لم يعهده الأهالي من قبل.. وتكاثر الدَّبَا والجراد.. وإذا كثر الجراد رخص اللحم.. وتوافرت الجبنة الزقزق.. والسمن البري.. والطليان الحري.. والدجاج والبرابر والديوك العشارى.. وتنوعت الخيرات.. فنعم الناس في لياليهم.. وخصوصاً بشكة أبو عرام بأكل الجراد مقلياً مملحاً وموضوعاً في التباسي تحف بها أحقاق الدقة المصنوعة من الكمون والفلفل الأسود والملح الأبيض يضاف إليها قليل من النعناع أو ملح البيض.. وتعتبر تباسي الجراد بمثابة «النُقُل» يتسلون بها لحين حلول موعد العشاء بفتح العين.

كما نعموا في وجبة الصباح بأكل التمرة المخلوطة بالبيض أو المصنوعة من البيض المخلوط بالسكر.. أو بالجبنة الزقزق بالسكر.. وذلك عدا أطباق المعصوب والمطبق والمقادم بالقَطْفَةَ.. وبجوارها أطباق الفول تغطيها طبقات من السمن البري.

أما وجبات الغداء والعشاء الرئيسية فكانت نماذج غنية باللحوم الحمراء والبيضاء بين سلات ومضبي وندي أوزربيان.. أو صيادية

حمراء.. أو سليق مع العبيلة التي يصر أبو عرام على توزيعها في زبادي صغيرة مع انفراده هو بقدر صغير منها خاص به.. وقد يصطفى من يشاركه فيه أحياناً من بعض الأصفياء في بعض الليالي المقررة!!

وهكذا أخذ أبو عرام يفيض على من حوله دون منٍّ أو تقتير.. بل إن أياديه كانت تمتد إلى كيس نقوده باستمرار.. ليدفع لهذا ولذلك من أهل محلته ما يطلب لفك ضائقة.. أو تكملة لنقص.. أو سداً لموجب.. كما أن هذه الأيادي قد طالت فتعدت أهل المحلة لكل قاصد إليها وإليه من المحلات الأخرى داخل سور جدَّة.. أو خارجه من سكان النزلة اليمانية.. والتعالبة.. والرويسين الأعلى والأدنى.. ومحلة بني مالك ـ أو الملك ـ كما كان يدللها ساكنوها!!

وتدور الأيام.. ويشح ماء السماء.. وتقل واردات الحلقة بما في ذلك الحطب والفحم والحشيش العتري.. والبرسيم.. فتنكمش واردات أبو عرام ولكنه لا يضيق بذلك.. ولا يغير عادة من عادات كرمه الدائم المعتاد.. مردداً في سره ولنفسه المثل الشعبي الدارج: «مين وَلَّفَ الناس بعادة سموه أبو العوايد» ولكنه إزاء وقفة الحال هذه كما سماها.. يختلي في إحدى الليالي بأحد سماسرة العقار سراً وتمتد يده إلى وثيقة العزلة الصغيرة فيبيعها.. ثم يألف البيع.. لأنه يكره الرهن.. فيبيع القراريط التي له في بعض بيوت الحي.. حتى ينتهي به الأمر أخيراً إلى بيع العزلة الكبيرة سكناه.. شرط سكناه بها طول حياته!!

ولكن فقيد الكرم والمروءات والبحبحة.. أبو عرام.. لم يتمتع بمزية هذا الشرط.. إذ اختطفه الموت في ليلة سوداء في أيام موسم الحج.. وقبل الخُلّيف بحوالي عشرين يوماً.. وذلك عقب حفلة عشاء

فريدة في بابها.. وكان اختطافه مفاجئاً حتى إن من سمعوا بنبأ وفاته في النهار لم يصدقوا ذلك حتى رأوا باعينهم النعش خارجاً من مسجد الشافعي.. وقد ازدحم سوق الجامع.. فسوق البدو بالمشيعين من جميع المحلات في مدينة جدة.. وخارجها.

ذلكم هو إبراهيم خليل الكلاش الشهير بابو عرام في إيجاز.. ودون مغالاة.. أو رتوش.. أما سبب اطلاق كلمة «أبو عرام» الذائعة الصيت.. والمطلقة حتى يومنا هذا على كل «فنجري» أَلِفَ البذل والعطاء والبحبحة على نفسه وعلى من حوله.. وعلى كل قاصد إليه.. فهو ذلك الصنيع الذي كان يفعله أبو عرام طيلة حياته لا فرق بين سرائه وضرائه مما يؤكد.. أن الجود من العود.. لا فقط من الموجود..

وكالعادة الأخوانية فقد رثاه بعض من قدروا قيمته وشهرته.. أو نالوا من نعمته وفضله ولكن ظل أحسن رثاء قيل فيه هو رثاء صديقه الحميم زنقر الصغير الشهير بأبو لسان.. وكان ذلك بعد أن غرزت له أرملة المرحوم أبو عرام الست «عزه» مبلغاً محترماً من الريالات الفضية أرسلته إليه مع خادمها حين رأته يتجهز للسفر من منى أيام الشقادف بعد رجمه للشيطان.. فأنشد قائلاً:

حيتك عزة بعد الحج وانصرفت
فحي.. ويحك.. من حياك يا جمل

فتلك زوجة من عاش الحياة لنا
عبد المضاليم.. من تزهو به الحلل

الأريحي أبو عرام.. مصنفه
على الكتوف به في اليوم ننشغل

الفاتح البيت للضيفان ما خرجوا
إلا على البطن منه.. بعد أن دخلوا
زحفاً!! فقد نغنغوا من فيض صفرته
طبعاً.. فقد بشموا من كثر ما أكلوا
والفارد الكيس للأخوان يكرمهم
صرفاً.. وقبضاً.. فلا مَنٌّ.. ولا زعل
يا ناس.. ليس أبو عرام مثلكمو
أو مثل جدي.. ففيه يضرب المثل
قد باع خير قراريط.. بعزلته
وقال.. يا اللا.. فلا عاشت لنا العزل

شُلْضُمْ..

سكان محلة الساحة في المدينة المنورة مشهورون بأنهم ممن يعتنون بتدوين سير بعض الشخصيات الشعبية حتى يعرفوا.. وتتحدد طبقتهم الاجتماعية.. كما أن أهل الساحة أيضاً معروفون بتفوقهم الثقافي نوعاً ما.. وبرقتهم التي استدعت أن يتردد عنهم القول الشائع: «أهل الساحة.. أهل العيون الدَّبَّاحة».

ومما يرويه هؤلاء الأهالي من سكان محلة الساحة أن من الشخصيات الشعبية المتأقلمة من ثالث جد لها.. والتي انفردت في المحلة بالسمعة الطيبة الحاج صفاء الدين شلضقجي.. الشهير فيما بعد باسم «شلضم».. وذلك بعد أن سن في أوائل عام العشرة بعد المائة والألف من الهجرة عادة حميدة شاعت بين الأهالي هناك.. وهي قيام ربات البيوت بوضع ألواح العيش أمام دورهم.. تسهيلاً لكل عابر بأخذ لوح العيش إلى الفرن وخبزه.. ثم إعادته أمام البيت الذي حمله من أمامه. ومن المفروغ منه أن على كل ربة بيت أن تضع الأجرة المقررة حسب عدد أقراص عيش اللوح وفوق الخرقة المغطى بها العيش.. وكانت فكرة شلضم الاجتماعية قائمة على الأساسات الآتية:

أ ـ تعويد الناس على الأمانة.. فلا يكتفي أحدهم بسرقة النقود التي

هي أجرة خبز العيش.

ب ـ تفرغ الرجال لأعمالهم بشتى أشكالها.

ج ـ انصراف الأولاد لمدارسهم.. بدل اشتغالهم بخبز العيش.. وبحمل ألواحه.

د ـ عدم تعطيل الفرانة.. أو انطفاء أفرانهم.

هـ ـ تمرين عابري السبيل من المجاورين والأهالي العاطلين على الخدمات الاجتماعية.

كما تعود سمعة الحاج صفاء الدين الشهير بشلضم إلى قيامه بالوراثة عن أبيه بتنسيق قانون الطبقات.. وتسجيله في ملفات البلدية.. بعد تقسيم هذه الطبقات إلى: خانه.. دانه.. فأهالي.. فمجاورين.. فشلاوية.. وذلك منعاً للاختلاط الطبقي والتداخل في الأنساب.. سواء لدى الانتساب عند اللزوم.. أو حين تقرير نوع التابعيات لدى المذاكرة عنها في القاعات.. وقبل وجود نظام التابعيات الحديث بأكثر من قرنين من الزمان.

وكان الحاج صفاء الدين الشهير بشلضم قد ورث بعض البلدان ـ أي البساتين ـ عن أبيه عن جده الثاني.. ولكنه استنكف رحمه الله أن يشتغل مزارعاً بنفسه حتى لا يتزحزح عن المرتبة المقررة لطبقته الاجتماعية.. فاتفق مع المرحوم خلف الحبرتي على القيام بشؤونها.. وكانت النتيجة أن انتهيا بعد نزاعات طويلة إلى المحكمة.. بكسر الميم ـ حسب منطوقها منهما ـ ثم إلى بيع البلدان بأبخس الأثمان.. مما دفع الحاج شلضم إلى حفظ البيت الشعري القائل:

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

وأصبح لا يرى ولا يسمع إلا وهو يترنم بهذا البيت مما دفع الوالي التركي آنذاك إلى أن يكلفه بكتابة هذا البيت الشعري بخطه النسخ الجميل.. ووضعه في برواز ثمين.. وحين قام شلضم بذلك وذهب به إلى الوالي كرمه بأن أمر بتعليق البرواز في صدر مجلسه الرسمي دون أن يدفع له أي شيء.. فكانت تلك اللفتة وحدها من الوالي أحلى ذكريات الحاج صفاء.. فصار لا يفتأ يرددها.. ويرويها لكل من يقابله في السوق.. أو بالمسجد.. أو يزوره في البيت ليسمع الحكاية من فمه.

وبالمناسبة.. فلقد كانت هواية شلضم الكبرى هي العناية بالخطوط الجميلة.. فقد تمرن وصرف بعض المال حتى اتقن خط النسخ.. وخط الرقعة.. وصار يقتنص الأمثال والحكم ليكتبها في براويز أنيقة ثم يغلفها.. ويذهب بها إلى «خط» السكة الحديدية ـ الأسطسيون ـ بباب العنبرية.. لحمة طرية.. ليبعث بها هدايا جميلة إلى أصدقائه في اسطمبول وضواحيها.. حتى ذهبت تلك الهواية بكثير من قيمة البلدان التي باعها بأبخس الأثمان.. ولم يبق له إلا بضعة «مخازن» في أرض مهجورة لم يتقدم أحد لشرائها تلك الأيام.. حتى دارت الأيام فباعها أحد أحفاده بمبلغ باهظ!!

وتأكيداً لهواية الحاج صفاء الشهير بشلضم هذه.. فإن سكان الساحة أكدوا أنهم رأوه قبل أن يتوفى في مطلع عام الأربع والتسعين بعد الألف والمائة من الهجرة.. وهو يحتضن لوحة جميلة مكتوباً عليها.. الصبر جميل.

ذاكم هو الحاج صفاء الدين شلضقجي الشهير باسم «شلضم» أما سبب هذه التسمية فتعود إلى أن جاره المرحوم عباس أفندي.. ولا داعي

لذكر اسمه الثلاثي.. زاره في إحدى الليالي.. لأجل أن يستأنس برأيه في تنظيم الرحلة التي اعتزم عباس أفندي القيام بها إلى الأناضول.. وحين سأله الحاج صفاء الدين.. هل تعرف يا عباس أفندي معنى كلمة «شلضم» أجاب عباس: لا!! فقال له الحاج: ولا معنى كلمة «بلضم» أجاب عباس برضو.. لا!! عند ذلك قال له الحاج صفاء الدين.. إذاً يجب عليك يا عباس أفندي أن تؤخر رحلتك إلى الأناضول حتى تعرف على الأقل معنى كلمة «شلضم».

وهنا ـ كما يذكر الراوة الثقاة ـ خرج عباس أفندي منفعلاً.. وأطلق في حالة أنفعاله على الحاج صفاء الدين شلضقجي اسم «شلضم» وهو الإسم الذي لصق بالمرحوم حتى آخر أيام حياته.

كما يذكر الرواة من أهل الثقة والمروءة للإنصاف وللتاريخ الذي لم يسجل.. إن عباس أفندي حين سمع بنعي شلضم قد فزع جداً.. وحزن كثيراً.. ونهنه قائلاً:

يا راحلا.. وجميل الصبر يتبعه
على الطريق.. وقد جفت مآقيه
يا شلضم الخير ملضوما بجلسته
في قاعة البيت بين الآه.. والإيه
من للعيوش.. وللألواح ناظرة
للقن دربا إلى الفران تأتيه
والناس قد تركوا العادات طيبة
لما التهوا في الذي.. يا شلض تدريه

من للخطوط.. من الرقعا مزخرفة
للنسخ من دون تزيين وتنويه
لسوف احفظ معنى شلضم.. وأرى
ماذا لدى بلضم أيضاً.. وما فيه
حتى أحوز رضا جاري.. وإن ذهبت
أيامه.. وبقيت اليوم في تيه
شلضوم!! لا تأس.. لا تحزن.. فحضرتنا
محل حضرتكم.. فيما ترجيه!!

بِسْبَاسَهْ . .

الرفق بالحيوانات واجب إنساني كبير.. وجليل.. ولقد تطوع في يوم ما.. وعلى عهد العربات الكارو بعض ذوي الفضل والغيرة والشفقة عليها. فكانوا يومياً يتابعون ويلاحقون أصحابها حتى لا يقسوا على البغال أو الحمير ما لا تطيق.. أو بضربها زيادة عن اللزوم.

كما كان يتجمهر بعض الأهالي.. ويبدون سخطهم على مفتشي البلديات ومندوبيها ـ أيام زمان ـ حين يصطحبون الصياد الماهر ومعه بندقيته لقتل الكلاب التي تزعج السكان بنباحها.. أو التي يشك في سعارها خشية الإصابات بداء الكَلَب.. بفتح اللام.. حيث لم تكن الحقنات موجودة في المستشفى الوحيد ببلدة جدة.. ولا في الاجزخانة اليتيمة فيها..

وطبيعة الرفق بالحيوان لا تأتي بالاكتساب.. أو بالوعظ والإرشاد.. ولكنها في الشخص تنبع من الإحساس وحده.. الإحساس الرقيق بطبيعته.. ولكن قد يتغالى عشاق الحيوانات في العطف عليها.. وفي ترتبيتها لدى اقتنائها إلى الحد الذي يصل بهم إلى الوسواس.. أو الجنون الحاد.

ذلك هو بالضبط.. بالضبط ما حدث للمرحومة الآنسة أسما

الجداوية. . والشهيرة باسم «بسباسة». . فقد نشأت هذه الفتاة الشعبية وهوايتها العطف على البساس وجمعها وتربيتها. . وذلك قبل أن تنشأ الكثيرات من النساء الإفرنجيات اللواتي يشاركنها هوايتها في تربية القطط سواء في أوروبا أو في الأمريكتين الشمالية والجنوبية.

لقد نشأت الآنسة «بسباسة» أو أسما الجداوية. . وهوايتها جمع البسس بكل أنواعها. . ما عدا النوع السيامي حيث لم تكن هناك معاملة تجارية بين سوقي جدة وبنكوك. . لاستيرادنا الرز السيامي. . اكتفاء باستيرادنا الأرزاز بأنواعها من المزه للهوره. . للبَكّا. . من الهند قبل انقسامها إلى قمسين ـ الهند ـ وباكستان. . ثم إلى ثلاثة أقسام بعد انفصال بنقلاديش!!

وشغلت بساس الآنسة بسباسه معظم أنحاء البيت المكون من مجلس وصُفَّه ومخلوان. . ودقيسي. . وديوان كبير. . ودهليز طويل وإن كان غير مستقيم. . حتى إن والديها لم يجدا. . فيما يرويه الجيران. . الأمكنة الفارغة والمخصصة للنوم أو للأكل أو لوضع أدوات «الجزة» التي كانت أم بسباسة تحرص على «نصبتها» باعتبار أن الجزة ونصبتها بتوابعها كلها من بنت المنقل للسموار وحتى الملقاط مصدر زهو واعتزاز عند ربات البيوت في تلك الأيام. .

. . ولقد أفرطت الآنسة أسما الجداوية والشهيرة باسم «بسباسة» في العناية بقططها وبالعطف عليها. . وبتربيتها تربية سليمة. . وتعليمها طرق النوم. . وآداب الأكل. . وقضاء الحاجة في أوقاتها. . وأصبح شغلها الشاغل حماية بسسها من أولاد الجيران. . ثم من تصرفات والديها اللذين كان همهما صرفها عن هذه الهواية البسسية. . حتى عمدا إلى الضرب والمطاردة لها ذاتها ولبسسها بالتبعية.

وكما قال لي جار العائلة العم الشيخ كرشوم «قصرو.. ما أطول عليك.. المسألة زادت.. والمصيبة راحت وجات من تحت راص البسس.. لأن المسكينة حصل لها لطف في الأول.. وبعدين فصخت.. يعني اتجننت جنان زايد عن الحد..!! قول.. ما أطول عليك برضو.. آخرة المآخر أبو بسباسه كان عندو مقعد أرضي مستقل عن البيت.. فشالها.. وحبسها فيه.. وصك لك عليها الباب.. وصار يدي لها أكلها كل يوم من بره.. بره.. يعني كان يرمي لها هو من أسياخ الروشان حقت المقعد اللي حبسها فيه» انتهى كلام العم كرشوم.

ويروي أهل المحلة القدامى ـ إن الشهرة التي استفاضت حول بسباسه لم تكن لأحد من كبار البلدة ـ وهكذا تأتي الشهرة الواسعة العريضة أحياناً لمن لم يسع إليها.. كما أنها تأتي عن طرق عجيبة.. شاذة.. وبسيطة.. ولا تخطر على بال.. ولهذا كان لا يخلو وقت من أوقات النهار.. وأطراف الليالي.. إلا وتجد نفراً من الصبيان.. أو الشباب.. أو الرجال أحياناً يتجمعون أمام المقعد ليروا.. وليسمعوا صوت بسباسه.. وعاداتها.. وأصنافها وطبعائها وعما تنعم به من حياة حافلة بالغرائب وبالنوادر التي لاقتها وتلاقيها منها.. فالبسة «نَجَفَهْ» مثلاً.. لا يمكن أن تهدأ إلا إذا قامت بسباسة نفسها بتمشيط شعرها.. وخصوصاً شعر الذيل!!

كما أن البسه «قَمَرِيَّه» لا يمكن أن تشرب الماء.. وإن تأكل المقرر لها من الفضلات البيتية إلا على طبلة خشبية.. وطبقاً لأصول آداب الطعام المتبعة في تلك الأيام الدسمة.. وهكذا مما لا يتسع المقام لتعداده.

تلكم هي الآنسة أَسْمَا المظلومية الجداوية التي سبقت في جده

أترابها من هواة القطط في لندن وباريس وروما ونيويورك وسواها من عواصم العالم الكبرى.. والشهيرة ببسباسه.

أما سبب هذه التسمية فلا يحتاج.. كالعادة.. إلى تعليل.. أو تفسير.. أو إيضاح.. فإنها آتية من لفظة «بسه» أي «قطة» بالاصطلاح العامي.. وإن كانت القواميس تقول أن: بس وبس بكسر الباء الأولى وضم الثانية مكررة.. دعاء أو زجر للغنم!!

ونعود لجار العائلة العم كرشوم الذي يقول: وفليله من الليالي ما أصحى لك إلا على الصوت اللي قومني أنا وغيري من سابع نومه.. قصرو.. ما أطول عليك.. إيش في؟ ايش حصل؟ قالوا: تعيش راصكم. بسباسة ماتت!! ماتت؟؟ ايوه!! وهادا كان يا محفوظ البقا والسلامة سنة؟ سنة؟ قول معايا يشيخ.. سنة الخديو!! انتهى كلام العم كرشوم!!

ويروي لنا صادق أفندي القاطن في الزقاق اللي يوديك على أيدك اليمين على بيت باعشن القديم.. قبل ما توصل على بيت قابل القديم برضو.. يروي أنه تطوع من سكات لسكات باعتباره محباً على السكِّيتي.. وبصفته شاعراً شعبياً برثاء الآنسة بسباسه مع احتفاظه بورقة الرثاء في علبة تنك رفيعة من اللي كان أهل أول يحفظوا فيها حجج البيوت.. ووثائق العُزَل الصغيرة وقد قال لا فض فوه.. ولا أطال لوعته:

آذَنَتْنَا ببينها أسماء
رُبَّ ثاو.. يَمَلُّ منه الثواءُ

قل لبسباسة لقد كان فخرا
لم تنله باريس.. أو روماءُ

لا.. ولا لندن.. أو نيويورك
.. وحتى .. في جنبنا سيناءُ
أنتِ سَوِّيت للبساس مقاما
في حمى جدة.. فَحَقَّ الثناءُ
يا أهالي المضلوم تيهوا.. فهذي
حارة الشام.. قربكم.. خرساءُ
يا أخا العقل.. لا تهن أي بسَّا
أي عُرِّي أيضاً.. ففيه العزاءُ
بس أوعى تزيد عطفاً.. فحتماً
سوقَ يأتيك بالجنون الشقاءُ
إيه «بسباسة» كدا برضو تمضي
وتسيبي البساس؟؟
هذا الجفاءُ؟

الْكَجَا..

لا بد أن تكون.. أو أن يكون ابنك على الأقل قد تابع الكجا من زقاق إلى زقاق.. وهو يذرع الشوارع الرئيسية بمكة.. بعد ملله من أزقتها الجانبية.. لا يفتر لسانه عن ترديد مقامات الحريري الساكن بمحلة الباب.. أو موشحات الأندلسي المقيم في الشامية.. أو مقطوعات طاغور المجاور بالمسفلة.. لا يهدأ.. ولا يفتر.. وقيل إنه لا ينام الليل.. إلا بعد أن وصفت له أمه شرب اللبن الحامض وبه فصوص. وفصوص كثيرة من الثوم.. وكانت هذه الوصفة.. فعلاً.. أشد فعلاً من استعمال الخشخاش.. وأعمق نوماً منه!!!

فالكجا.. وهذه شهرته.. وليس اسمه الذي أطلقه عليه أبواه اللذان كانا يسكنان في آخر المسفلة.. وعلى مقربة من بركة ماجن.. حيث الخضرة.. والماء.. والرز البخاري الذي يتقنه.. المنى.. مخصوم على عهد مركاز الأدباء والشعراء برئاسة المرحوم الأستاذ حمزه شحاته وعضوية كل من الأخوان مع حفظ الألقاب الحالية.. القنديل.. توفيق، العريف، ياسين، زيدان، البصراويين، الأب عزيز، وهلم جراً.. أو نصباً.. أو جزماً بالسكون.

طبعاً.. طبعاً.. على قول الساسي.. الكجا اسم الشهرة الذي

انطلق من مكة فاخترق الأسماع.. وتردد على الأفواه حتى وصل غرباً منها إلى بحرة.. فجدة.. مستقراً في الحارة. حتى الثعالبة.. وطاف شرقاً منها محيياً قريشاً في بطن منى.. فكبكب.. صاعداً بعد الكر.. إلى كرا.. فالهدى.. واقفاً عند حدود ثقيف بعد الطائف لرفض الإعراب في الوهط.. والوهيط.. ولِيَّه.. والشفا قبول الأسماء الأعجمية.. مع أن الأستاذ أبو تراب الظاهري أكد لهم في برنامج خاص أن كلمة «كجا» عربية الأساس المتين.. وأنها مركبة من لفظين اثنين هما.. لفظة «كما» ولفظة «جاء».. وكما أحب الأستاذ عبد القدوس التخفيف على الناس في نطق الكلمات المركبة فقد أمر رعاه الله بحذف «ما» من كما.. اكتفاء بالكاف وحدها.. واعتماداً على ذكاء الناطقين بالكلمات المركبة والسامعين لها.. مع حذف الهمزة لتخفيف العبء في الفعل «جاء» فأصبحت «كجا» بدلاً من «كما جاء».. علماً بمعارضة الشيخ حمد الجاسر مكايدة منه.. فقط.. للأستاذ عبد القدوس.. فأكد أن الأصل هو «كذا.. جاء» بعد إدخال آل التعريفية عليه.. فأصبح بفضل جهودهم الطيبة اسم «الكجا» علماً معروفاً.. ومنصرفاً إلى كل من «كجكج» في مشيته.. والكجكجة كما يقول الأستاذ العطار نوع من المشي الموسيقي الذي تصطك فيه الركبتان من الوسط ببعضهما.. ثم تنفرجان ثم تصطكان من جديد.. وهكذا دواليك.. على طريقة مسك «الوحدة» في الإيقاع الطربي الأصيل!!

وعلى العموم ـ فإن الكجا معرفة معروفة من الجميع ـ وقد اشتهر بخفة روحه.. خفة تقل كثيراً عن خفة عقله من حيث الكم.. ولكنها لا تقل عنها من حيث الكيف.. كما اشتهر بسرعته الملوينية في السعي وفي الطواف بالأسواق والأزقة والشوارع حتى يتعب.. فيكجكج في مشيته على

رواقة.. وذلك للاستمخاخ أولاً.. ولتيسير الفرجة عليه ثانياً من كل من رغب في الفرجة عليه.. وكثير ما هم. فقد كان الكجا كصندوق الدنيا لا تمل من الفرجة عليه.. ولا من سماع أحاديثه المرسلة عند الخاطر لا يقيدها عقل متعوب عليه.. وإنما يفسح لها المجال جنون.. أي جنان.. متعوب عليه!!

ويروي سليمان أومياه القريب الوحيد لوالدي الكجا من بعيد لبعيد.. إن الكجا عاقل جداً.. بل هو فيلسوف من طراز سنسكريتي عتيق.. وإن حركاته ومشيته هما نوع من أنواع «اليوغا» وإن الكجا ذاته في خلواته البيتية كثيراً ما يتحدث عن الجنون والمجانين حديث العارف ببواطن الأمور.. وكذلك بمظاهرها الخداعة.. فكم من مجنون عند الناس عاقل جداً عند نفسه.. والعكس بالعكس.. ولكن هذا البحث الدقيق لا يطيب ولا يتأتى للكجا إلا بعد أن تقدم له والدته النوع المعتاد عليه من البوبر ومن حمام.. أو دجاج البر.. وهما الصنفان اللذان يحبهما للطقطقة.. كفاتحي شهية ـ ابيرتيف ـ تمهيداً للوجبة المكونة غالباً من الرز بالكاري.. مع أنواع الشباتي.. ومع الإكثار من الأطباق المفلفلة وربما عاد بحثه الجنوني العقلي هذا إلى تأثير الشطة الحمراء التي تشبه كثيراً الحرية الحمراء التي وصفها أحمد شوقي بقوله:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

حيث أردف الكجا لدى سماعه هذا البيت لعاشر مرة.. وعند هبوب شاعريته بيته المشهور:

أخي! للشطة الحمراء.. طاب
على الشُخْطَينِ يُطْرَقُ.. أو يُلَقُّ

وكانت لعبة الطاب للكجا هي لعبته المفضلة أيام طفولته المبكرة قبل النوم!!

ويؤكد ما يرويه الحاج سليمان أومياه ما رواه بعض المحتكين احتكاكاً غير مباشر بالكجا.. إذ يقولون إنه كان كثيراً ما ينعي على العقلاء استهزاءهم بمن يسمونهم المجانين.. وإنهم يعتبرون من أكبر الجناة عليهم.. فلو أن الجماهير العاقلة رسمياً والصبية منهم على الأخص بدلاً من أن يطاردوا من يعتبرونهم «مجانين» ويقذفونهم بالحجارة.. انصتوا إليهم.. وعاملوهم برفق.. وأوْلُوهم شيئاً من الحنان والرعاية لما رأيت مجنوناً واحداً في الأسواق.. أو في مستشفى السداد بالطائف.. الطائف المأنوس.. يبغي لو كيس فلوس!!

والحقيقة أن ما يزكي هذا القول.. عناية الكجا بهندامه المألوف.. فهو لا ينسى أبداً أن يرسل الشال على كتفه الأيسر في يعسبة ملحوظة.. وأن يظبط حزام وسطه بعناية فائقة يربطه في عقدة ونصف العقدة.. وأن يطنقر الكوفية الجاوي على قنجته طنقرة خاصة به.. حتى لقد اطلق عليها من شدة الإعجاب بها «الطنقرة الكجاوية». وإذا كان الكجا لا يطيق دائماً لبس المداس ـ أصانكم الله ـ فإنما يعود ذلك إلى أنه أيام استعماله للحدا.. ـ أعزكم الله ـ انفلتت ـ بعد أن انقطعت ـ إحدى فردتيه وهي اليسرى فيما رواه البعض.. فتأثر جداً من هذا الفعل الشنيع.. واعتبر ذلك العمل الفاضح من تلك الفردة جفاء مقصوداً لرجله اليسرى بسبب قلة صبرها على الداحوس المزمن والمستقر بين الخنصر والوسطى فألحقها.. بعد أن انفلتت بالفردة اليمنى زاقلاً إياها بطول يده اليمنى قائلاً في صوت مسموع من الجميع:

الحقي أيتها الفردة اليمنى بأختك اليسرى.. فإنني لن احتذي بعد اليوم.

وهكذا في لحظة انفعال أصبح الكجا من كبار الحفاة.. وهو الذي أطلق المثل: إن شفت الحافي قول يا كافي!!

ولئن طال البحث أو قصر عن الكجا فإنه سيبقى في الحالين عنواناً على «الجنان» المهذب.. اللطيف والمقبول أيضاً.. وذلك هو الذي جعل السلطة تتغاضى عن تجواله اليومي.. ولعدم تلقيها بالطبع أية شكوى ضده.. ولقد عرض الكجا في أخريات أيامه أن يكون مراسلاً محلياً سوقياً لإحدى الصحف.. أو لها كلها إن وافقت مراجعها فإن الأخبار نفسها كانت تسعى إليه حيث يسعى.. ولكنها ـ أي الصحيفة ـ طالبته بالبطاقة الشخصية اللازمة فرأى نفسه أكبر من أن يُعَرَّف بواسطة ورقة عادية.. وهو العلم المفرد ـ وعند هذا الحد وقف البحث بصدد توظيفه.. وإن كانت الصحيفة قد قامت لتطييب خاطره ولإرضاء جماهيره من قرائها الذين أزعجهم خبر عدم توظيفه مراسلاً سوقياً بعمل ريبورتاج شيق، أجاب فيه بذلاقة لسان على جميع الأسئلة الموجهة إليه.. اللهم إلا ما اختص منها بالوالدة.. وبالكشرى.. والبوبر.. والشطة.. وقد لاقى ذلك العدد من الجريدة رواجاً ما مثله من رواج.

ذلكم.. هو الكجا في حقيقته.. وفي حيثيته الشخصية اللامعة.. أما سبب تسميته وشهرته «بالكجا» فقد مر كذلك فيما سلف.. وإنه راجع إلى «الكجكجة» في مشيته!!

هذا.. وقد تقدم إلينا بعد مغرب يوم أمس حسب موعد العزاء في المرحوم أحد الطلبة النجباء بقصاصة مطوية على نفسها من الحزن..

ومكتوب فيها بخط أنيق هذه الأبيات المستوحاة في روحها الشعرية من روح الشريف الرضى.. وفيها يقول:

الكجا.. إن كان لا بد الكجا
إنه ما كان شخصاً.. أعوجا
مستقيم العود.. مرتج القفا
حين يمشي في الأزقا الكجكجا
يا أخلاَّي بمكا.. هل أرى
ذلك السن الضحوك الأفلجا
يأكل الموز.. ويرمي قشره
بطريق الناس.. طبعاً أهوجا
أمسكوه.. واطلبوا العمدا له
وازهموا الشرطا إذا ما عَصْلَجا
واذكروا شَبًّا إذا غنى لكم
طفح الدُّرْدي.. ودس البكرجا
يا أهالي الشعب.. يا أهل النقا
ليس فعل الفعل مثل الطهمجا
فاندخوا.. إن شفتموا زيلته
يا هلا!! حيوا.. لقد جانا الكجا!!

عَمْ سَدِّيقْ..

وسائل الإعلام الحاضرة لدينا ابتداء من جرائدنا اللي زي بعضها.. حتى لكانها توائم يخشى أباؤها.. وأولياء أمورها.. وهم أصحاب المؤسسات الصحفية أن تتغالى أحداها في الإنفراد بسحنة خاصة جديدة.. كما بدأت تفعل عكاظ.. فتحرم من الانتساب العائلي.. وانتهاء بمذياعنا الوقور.. وتلفازنا المبارك.. كل هذه الوسائل الإعلامية ألهتنا في عجلة من أمرنا عن حلول الذكرى الخمسينية المقامة في جدة أمس الأول.. في غفلة.. وسكون.. وتجاهل تام لأول جهاز إعلامي بشري متحرك فيها.. أي في جدة.. أم الرخا والشدة!!

وفي هذا الدليل الحي على سرعة نسيان الأحياء للأموات الذين طاحوا.. ولم يسقطوا.. في ساحة النضال لرفعة شأنهم.. وسد نقصهم.. والقيام بواجباتهم.. وذلك بالإعلان الهام عن كل ما يهمهم مما حز في نفس كاتب هذه السطور.. بقلم ناشف.. ودعاه بعد أن خلع ملابسه إلى إعادة ارتدائها من جديد بعد منتصف ليلة أمس الأول وذهابه حالاً بالاً إلى مقر بقية العائلة الكريمة من أبناء وأحفاد العم سديق.. كما كان الأوائل من أبناء بلدنا ينطقون الصاد سينا في لهجة شعبية.. سادقة!!

والاسم الكامل لعم سديق.. هو عم صديق حلواني المنادي..

والمنادي إضافة مهنية لحقت اسمه ولقبه بعد الاحتراف.. والحلواني لقب العائلة يعود كذلك إلى صنعة جد جده.. حيث حل محل لقبها الأصلي بالطبع.. وهي عادة درجت عليها ألسنة الناس.. يضيعون بها على الناس ألقابهم حين يرددون بدلها حرفهم فتشيع.. وتلصق بصاحبها.. وهذا بحث اجتماعي طويل لا نرى داعياً له الآن.. وإن كان قد دعانا له الاستطراد كالعادة درجنا عليها.. أو كمرض مزمن في لساننا!!

الشاهد.. أو الأمر وما فيه.. إن كاتب هذه السطور حين ذهب في الذكرى الخمسينية لوفاة العم سديق إلى دار عائلته بعد منتصف الليل.. وبعد أن فتحوا له باب الشقة.. ولم يجد ما كان مقدراً وجوده.. وقف حالاً.. ودون دعوة منهم.. خطيباً بينهم.. قائلاً لهم في صوت حزين:

يا أفراد العائلة الحلوانية!! ما لي أراكم هكذا.. بين نائم.. ومن كأنه قائم من النوم؟! هل نسيتم الإعلامي الأول عم صديق؟ كيف طاوعتكم قلوبكم الصلدة.. ونفوسكم الجادة أن تتجاهلوا ذكرى وفاته الخمسينية إلى هاته الدرجة؟ بل كيف سمحتم لأنفسكم أن تقرؤوا الجرائد اليومية.. وأن تستمعوا للراديو.. وأن تشاهدوا التلفزيون من بعده وبالأخص في ليلة ذكراه الماسية؟ تالله لئن ضاعت أصداء صوته الجهوري القوي من أزقة جدة وأسواقها وشوارعها فإنها باقية في أسماعنا نحن صبية الأمس.. شيوخ اليوم!!

إن من حق تلك الأصداء أن تبقى بين جدران بيتكم الضيق هذا.. والضيق في الصدور.. وفي رحبة الحوش المجاور للزقاق الذي بقي من أصل سوق الندا الكبير القديم.. الأصلي.

ويا ريت.. أو ليت.. وهل تنفع هذه الليت. ليت أن المسجل قد

فن في أيام المرحوم فسجل لنا ولأحفادنا ذلك الصوت الذي قلما يجود الزمان بمثله.. ولكنني أبشركم.. نعم!! أقولها بعلو صوتي أنا.. أبشركم أن هناك بحثاً علمياً تكنولوجياً يدور من حوالي العشرين سنة لفرز الأصوات التي يقولون إنها باقية في الفضاء من قديم الزمان وسالف العصر والأوان.. ولسوف، إنْ أخذ الله وداعة الجميع منا ومنكم. يتمكن أحفاد أحفاد أحفادنا بسماع صوت المرحوم من جديد!!

أخواني!! ها؟ ايش قلتوا؟ هيا قولوا لي.. كيف سويتوا كذا يجماعة؟ ليش يناس عملتوا فنفسكم هادا اللي عملتوه؟ يعني هو عيب؟ يعني هادا يسير؟! ايش فيها الجرايد هادي اللي بتقروها كل يوم.. و.. و..

وعند و.. وهذه.. وقبل أن أعطف ما بعدها على ما قبلها من قولي المحرك للشؤون وللشجون معاً في قلوب ونفوس بقية أفراد عائلة عم صديق.. ابتدأ الكل ينشجون.. أو يمخطون ويلطعون وفي نفس الوقت يتعاتبون ويتلاومون.. وذلك فيما عدا الشاب الذي لم يدرس علم الآثار.. ولم يلم بعلوم الاجتماع.. أو بفنون الفولكلورات الشعبية بأنواعها.. حيث هب جالساً.. بعد أن كان واقفاً.. ثم صاح في وجهي بقلة أدب متناهية.. وأشار الولد المتعجرف إلى الباب الخارجي علامة لطردي من البيت صائحاً بأعلى صوته: ومن هو عمك صديق حلواني هذا حتى تجيء في مثل هذا الوقت لإزعاجنا من أجله؟

هنالك.. والحق يقال للتاريخ وللأمانة الفنية.. تحركت ست الشاب ـ أي جدته ـ قائله له في أسى وصبابة.. وه!! وه!! يصادق.. هو أنت الين دحين ما تعرف أن أبو أبوك.. وقالتها وكأنها تشتمه.. اسمو صديق؟

بهذه التحميلة الموسيقية ـ على طريقة بعض كتابنا ونقادنا العصريين ـ ندخل إلى سرد سيرة شخصية شعبية لها في التاريخ الجداوي البعيد القريب أعمق الآثار وأبعدها في جميع النفوس والأسماع.. سيرة العم صديق حلواني المنادي.. والشهير بعم سديق!!

ولقد عثرنا لحسن الحظ مصادفة على استمارة قديمة من استمارات أيام زمان.. ومنها يمكن إلقاء الضوء كما يقولون.. على هذه الشخصية الخطيرة في دنيا الإعلام القديم.. وهذه الاستمارة مخطوطة بخط الكاتب العمومي الأستاذ المشاط المشهور مكانه بقهوة الجماله على عهد شيخ المخرجين النجاوي:

س: اسمك؟ واسم أبوك؟ وعائلتك يشيخ!!

ج: صديق صادق حلواني!!

س: اسم الحارة يبويا؟

ج: المنادي.

س: تيلادك.. يعمي؟

ج: أول السنة اللي جا فيها البابور جها نقير لجده أول مرة!!

س: محل ما انولدت.. يخويا؟

ج: جده.. سوق الندا.. جنب زاوية أبو سيفين!!

س: طولك بالدراع المعماري.. يشيخ؟

ج: والله أنا قط ما قست نفسي.. بس أنا أعرف إني أطول من عمي ياسين!! واقصر من خالي طاها اللي كانوا يقولوا لو: طاها.. الذي رخاها!!

وتقول بقية الاستمارة المكتوبة نيابة عن العم صديق المنادي بقلم الكاتب العمومي بقهوة الجمالة الأستاذ المشاط:

س: ـ العلامات الفارقة.. يوليد؟

ج: ـ فقشة حجر في جبهتي.. وتشريط بالموسى في خدي.

س: ـ أحسن غدوه.. عندك؟

ج: ـ الصيادية.. والمشرمل للغموس!!

س: ـ والعشوة..؟ خلصنا قوام!

ج: ـ الفص.. يعني الفول.. ويا اما الكباب الميرو والا المقلية!!

س: ـ بتستعمل ايش لحسك.. يعني لصوتك اللي زي الضاهية!!

ج: ـ النبات الشيناوي.. وهو في أحسن منو؟

س: ـ يا الله.. امظي هنا يشيخ.. وروح فحالك!! تعرف تمظي؟

ج: ـ لا.. ما أعرف أمظي.. لكن عندي المهر حقي.. خد.. خد.. اهو!!!

ورحمة بأذواق الأنجال والأحفاد من الجيل الجديد.. فإننا نقتصر على ما سلف.. ونترك الباقي من الاستمارة لمن سيوفقهم الله مستقبلاً للحفاظ على تراثنا الشعبي الباقي.. لننتقل إلى إعطاء هذه الشخصية حقها من السرد.. والشرح.. والتعريف.

لقد انفردت شخصية عم صديق حلواني المنادي بالشهرة المستفيضة في طول مدينة جدة وعرضها طيلة نصف قرن من الزمان.. بل وأكثر من ذلك بكم سنة وبضعة شهور.. فلا يمكن.. تعرف ايش يعني لا

يمكن؟.. لا يمكن أن يوجد آنذاك أحد.. أي أحد صغيراً كان أم كبيراً.. أم بين.. بين.. من سكان جدة وملحقاتها من الضواحي والقرى يجهل اسم عم صديق المنادي كما كان يسميه الصبيان الذين كانوا منه وله بمثابة الجوقة.. يكونون أعضاء الفرقة الموسيقية يحيطون ويحفون به.. وهو ينادي على ما ينادى عليه.. كما تحف أعضاء الفرقة بالمطرب الشهير.. طائفاً بالأسواق.. دائراً بالشوارع.. لافاً بالأزقة.. ملعلعاً.. مترنماً.. في تنغيم وتطريب بصوت يخترق الأذان.. ويتعدى الجدران.. ليغزو كل مغلق.. أو مبسط.. أو دكان.. ليصل به.. أي بصوته.. إلى حيث تريد طبقته العالية جداً والمشابهة من حيث المقابلة المعمارية بناطحات السحاب في قلب.. لا صوت.. نيويورك.

أما اسمه بالكامل.. كما خطته يدا كاتب قهوة الجماله العمومي.. وحسب منطوق لسانه.. فهو صديق صادق حلواني.. وقد ولد لأبوين فقيرين بالنسبة للتقييم المالي المادي.. ذلك أن أباه كان.. والا بلاشي!! وإن أمه.. وإلا أقول لك.. برضو.. بلاشى!! كما أنه كما تذكر الداية التي تلقته بيديها قد جاء إلى هذه الدنيا الفانية صارخاً صراخاً لم تعهد مثله في مواليد الحارة.. بل ومواليد جدة شملاً كملاً كما تقول.. ولهذا فقد تنبأت إحدى العجائز القرم الحاضرات وقت النفاس بقولها: الولد هادا راح يطلع منادي! فسرت بذلك جميع الحاضرات من النساء.. وضحكت أمه رغم آلام الولادة لسرورها من هذه البشارة!!

ويقول عم صديق عن نفسه وحين تقدمت به السن.. واحتاج إلى تزديد الذكريات القديمة.. شأنه في ذلك شأن كل من تتقدم بهم الأسنان والسنون.. إنه نشأ هاوياً.. بل عاشقاً للصراخ.. ورفع الصوت.. وهي

صفة غير جداوية على العموم مما آثار «حفيظة نفوس» الكثيرين عليه.. ومما دعاه إلى التفكير في استغلال طبقاته الصوتية العالية في غير ما يؤذي الناس.. فاتجه إلى الغناء.. ولكن الجسيسة المحترفين ضيقوا عليه الخناق والمجال.. فانصرف رغماً إلى ممارسة الأذان مجاناً.. ثم انقطع عنه مرغماً كذلك.. حسب أمر القائمقام نزولاً على شكوى الأهالي!!

وهكذا انتهى أمر العم صديق بالجلوس في بيته بالليل.. مفكراً فيما ينبغي عليه أن يعمله.. مصرمحا بالأزقة.. فالشوارع.. فالمقاهي بالنهار.. لعل وعسى.. وفجأة.. ولأمر يريده العزيز القدير.. ولا راد لأمره.. فقد صادف أن اختلف عم صديق مع القهوجي المجاورة قهوته لمسجد الباشا على الحساب.. وتصايحا.. وحد العم صديق الطبقة.. وتصادف أيضاً أن مر في تلك اللحظة التاريخية المناسبة الخواجه هنكي وكيل البواخر الأجنبية.. ومؤسس بيت جلاتلي هنكي وشركاه.. وهو البيت الإنجليزي التجاري العتيق.. والمعروف في جدة كلها والذي كان مقره بجوار الكنداسة القديمة.. وعلى مقربة من مسجد الباشا.. وحيث القهوة التي وقع فيها الخصام وسمع الخواجه صوت عم صديق.. ودون أن يعرف معاني الكلمات والمعاني المنطلقة من فم العم صديق انطلاق القنابل والقلل.. فأعجب كثيراً بهذه الموهبة الصوتية.. وهز رأسه بل وخلع قبعته ـ أي برنيطته ـ من فوقها.. وتمتم في انجليزية سليمة: فري.. فري قود!!

هنالك.. ولحسن الحظ.. لاحظه عم صديق.. فاقترب منه.. ووشوشه في أذنه بالعربي.. فلم يكن من الخواجه هنكي إلا أن يزيح فم عم صديق عن أذنه.. لا لأجل انزعاجه من رائحة البصل بل رغبة في

انجاز نيته التي أضمرها.. وأشار لعم صديق أن يرفع صوته وأن يصرخ بعزم ما أعطاه الله. فأدرك العم سديق غرضه.. وزعق قائلاً:

يا هنكي.. بامارية وصول البابور الطايف.. بوسطه خديويه اليوم لجدة.. وزي ما قلت لي بالانقليزي إنك تبغي تدفع حساب القهوجي هادا.. جبا من عندك.. وإن كان الجبا ممنوع.. والزعل مرفوع.. فأنا ما عندي مانع أنك تحاسب عني.. وإني ما راح أزعل.. والحاضر يعلم الغائب!!

هذا.. وتقول الرواية الثابتة شعبياً أن الخواجه هنكي بعد أن سمع صوت العم صديق ـ المشهور بالمنادي ـ لم يتمالك نفسه من الإعجاب. فقام حالاً بتسديد حساب القهوجي.. بل ومد يده إلى جيبه ثانية.. وأراد أن يغرز للعم صديق ما جادت به نفسه.. ولكن العم صديق صاح في وجهه: افا.. أنا المسلم.. أخذ منك أنت يخواجه.. ينصراني صدقة؟ لا.. لا.. الجبا معليش عشنو فن!!.. بس الصدقة.. لا.. لا.. هادي ما يقبلها المسلم إلا من مسلم زيو!!

هنالك.. كما يقول الفتيني صاحب القهوة.. رد الخواجه هنكي فلوسه إلى جيبه.. ومد يده مصافحاً العم صديق معجباً بهذه الروح العالية.. وودع الجميع ذاهباً إلى مقر مكتبه حيث بادر حالاً إلى كتابة تقرير سري لمركز شركة أوبيت جلاتلي هنكي وشركاه الرئيسي في لندن يقول في بعض فقراته «حيث إن من أكبر أعمال مؤسستنا توكيلات البواخر. ونظراً لأننا تعبنا كثيراً في إعلان قدومها وسفرها بالطريقة المرضية.. وبناء على إنني سمعت اليوم بالمصادفة صوتاً عربياً فريداً في نوعه لشخص يسمى «الام سديق هالاواني».. فإنني أرشح المذكور فهادا

هو اللي يسلح للإعلان.. وقبل أن أنسى أذكر لكم أن الهالاواني هذا زكاه كل من المساتر.. أثمان.. ناشار.. اشماوي.. «يقصد المرحومين المشائخ عثمان باعلمثان.. محمد نشار.. أحمد عشماوي» وبموجب هذا التقرير السري جاءت الموافقة بالتلغرام.. وعن طريق وكالة روتر على تعيين عم صديق حلواني منادياً على بواخر جلاتلي هنكي وشركاه.. ولعلها أول موافقة وتعيين تأتي بالتلغرام في تاريخ جدة القديم..

وهكذا.. ابتدأ صوت عم صديق يعلو رسمياً وشعبياً في سماء جدة.. وعلى طريقة الخير لمن يقدف.. يقدف.. فقد وصل الخبر بطريقة سرية أيضاً إلى بيت الحاج زينل رضا وشركاه.. ثم بنفس الطريقة وصل لبيت فاضل عرب وشركاه.. فتعاقد كل من البيتين التجاريين مع العم سديق الذي أصبح لا ينادي إلا «المنادى».. فابتدأ بمنظوماته الإعلانية التي يدين لها الانتعاش ودار على جميع الأسواق.. والشوارع والأزقة والبرحات.

ولما كان العم سديق فناناً صوتياً.. فقد استغل أولاً طبقات صوته العالية في هذا المضمار.. وثانياً قام في سكوت تام ترتيب وتنسيق كل طبقة في أرشيفها الخاص بها.. وخصص كلا منها لما يليق به.. فجعل.. مثلاً.. للولد الضائع طبقة خاصة به.. كما أفرد لقدوم أو سفر الباخرة رضواني طبقة تجارية مميزة بلحن مميز.. كما اختص الإعلام الرسمي بطبقة وقورة مهذبة.. لا تتبدل ولا تتغير!!

ومن الأمثلة على ذلك.. دون ترتيب فني.. ولكن لأخذ فكرة عن الطبقات ونماذجها الآتي:

أ ـ يا خوانا.. يا هل البلد.. بابور بوسطه خديويه اسمه الطايف

ميعاد وصولو بكره من السويس.. أو.. البابور جهانقير.. أو علوي.. أو رضواني بكره ميعاد وصولو.. ويقوم من جدة يوم الخميس الجي لبومبي وكراشي.. فعلى كل من عندو «صر».. يعني تحويل نقدي.. أو بضاعة مراجعة كوبانية هنكي.. زيني.. عرب.

ب ـ يا خوانا.. يا هل البلد.. مين شاف الولد الضائع.. والحلاوة حاضرة.. لابس كدا.. الخ.

ج ـ يا خوانا.. يا هل البلد.. كل مين يشوف الهلال.. يروح الاقتصادي إلى حد كبير.. وخطير..

ولم تكد تمضي بضعة أسابيع على قيام عم سديق الشهير «بالمنادي» بالإعلان عن البواخر.. حتى تنبه أهالي جدة إلى فوائد ومزايا الإعلام الشعبي.. وميزات الإعلان.. فأقبلوا.. أو هرعوا كما يقول حبيبنا وأخونا غير المذكور.. إلى بيت العم سديق.. لتسجيل إعلانات لهم.. ابتداء من الولد الضايع.. إلى تعيين مواعيد المناسبات الهامة.. مثل الصرافة.. والزواج.. والطهور!!

ولقد رأت الجهة المعنية ضرورة تركيز هذا الجهاز الإعلامي البشري فجددت عقدها معه لإذاعة وبث الأوامر والممنوعات وما يلزم.. فكان محل الثقة والأمانة.. وحسن الأداء.. ابتداء من دخول أو خروج رمضان.. إلى صلوات العيد.. والاستغاثة.. و.. و.. من كل ما لا بد من الإعلان الرسمي عنه.. فكان الناطق الرسمي والشعبي معاً.. دون مزاحم.

وبذلك كله.. لا بعضه.. دخلت شخصية عم سديق حلواني الشهير «بالمنادي» التاريخ الشعبي من كافة أبواب جدة الأربعة وهي باب جديد

شمالاً.. باب شريف.. جنوباً.. باب مكة شرقاً.. وأخيراً باب البنط من الجهة الغربية الملاصقة لبحر الحجر وبحر الطين.. فتربع العم سديق.. بل وقف.. وتمشى.. وطاف ولف للمحكمة يبلغ باللي شافو..

د ـ أما القفلة للثلاثة الأنواع التجارية.. والأهلية.. والحكومية.. فهي دائماً.. أبداً:

والحاضر يعلم الغائب!!

هذا.. ويذكر بعض المعاصرين الخبثاء أن هواية عم صديق.. بعد جلوسه في القهوا للقط أنفاسه وأخد سكة.. أو دور.. داما.. هي ولعه وحبه للجنيهات الذهبية.. فقد كان يضع الجنيه أبو بنت وراء شفته السفلى وحين ينادي يحركه لدى نهاية كل مقطع ليراه الحاضر فيعلم الغائب.. وقيل أن الذهب يقوي الصوت!!

ذلكم.. هم عم صديق حلواني الشهير بالمنادي.. وهذه الشهرة لا تحتاج إلى تعليل.. أو تفسير.. وقد مرت ذكراه كما وصفنا.. لذلك فقد رأينا تكريماً له لا لها رثاءه في حدود الصنعة اللائقة بالمنادي الأشهر.. حيث لم يكن خليفته فيها المرحوم أيضاً الشيخ سعيد أبو الجدائل.. وهو آخر المنادين في مستوى عم سديق!

فقلنا في ذلك:

صديق.. يا كل الجرائد شفتها

في لحظة.. متسلقحا

يا بحة الراديو توحد في البرامج

بائتاً.. أو صابحا

يا صيحة التلفاز والبطل الأميركي
قد تعنقل طائحا
من قبل ما فن الجميع.. على الجميع
وكان وقتاً صالحا
يا من إذا رفع العقيرة بالنداء
فإنه ما كحكحا!!
وإذا رأى التنويع في بعض المقا
طع.. نحنحا
يا ليت سجلنا صراخك في الشوا
رع.. والأزقة صائحا
جنقير.. أو علوي: كما
الولد الذي قد ضاع منا البارحا

الخال سالمين..

لا يزال المخضرمون.. الأحياء من أبناء وأحفاد أهالي جدة.. وبالأخص سكان قصبة الهنود القديمة التي ذهبت في الهدميات قبل الأخيرة للمدينة يذكرون الشارع.. أو الزقاق الذي به بيت الأصفهاني باتاريكه المعلقة في دهليزه.. حيث يقع.. في صفه كما يقولون.. دكان المضبي الأكلة التي تأكل أصابعك قدامها ووراءها وأنت غافل عن أكلها.. وذلك من لذتها وخفتها على المعدة.. كما لا ينسون أبداً ذلك الرجل الكريم السمح الطباع الخال سالمين بن المرحوم «يسلم ويجي».. في جلسته الوقورة متفقداً الزبائن أو الأطباق الصغيرة الأنيقة وبها أوصال المضبي.. بنظرة سعيدة صامتة.. ومتنشقاً ملء رئتيه في فرح وارتياح رائحة الشواء العابكة دخاخينه.. والتي كانت مثل المنار المخصص لاهتداء السفن إلى الميناء.. ولا مبالغة في هذا الوصف.. فقد كان القادم من القصبة شرقاً.. أو من السوق الكبير غرباً لا يتمالك نفسه حين يشم رائحة اللحم من أن يطاوع قدميه اللتين تجرانه جراً إلى مصدر الرائحة المشهية والمثيرة للجوع. فإذا هو إما على باب الدكان في انتظار دوره من شدة الزحام.. وإما على الكرسي المحنتف الصغير يلتقط بأصابعه في متعة والتذاذ حبات اللحم الصغيرة الدقيقة غامساً إياها في الطحينة الممزوجة بقليل من الخل المرشوش عليها شيء لا يكاد يبين من الفلفل الأسود والكمون.. متحاشياً

الإكثار من الخبز بين الحبة والحبة بقدر الإمكان.. مستمتعاً في تلك اللحظات الهنيئة بطلعة الخال سالمين.. وبخفة يده في التقطيع والشي لا يمل الراني إليهما من تكرارهما.. سعيداً.. قبل وبعد ذلك.. بالمقابلة وبالحفاوة اللتين لا مثيل لهما في قاموس المجاملات.. فهما مختصرتان دائماً في جملتين قصيرتين كانتا أساساً طيباً وصالحاً.. فيما يرويه رواد الأدب العصري.. لاقتباس الكاتب المصري الأستاذ سلامة موسى لصيغة الأسلوب التلغرافي.. فهما.. أي الجملتان.. لا تتعديان وقت دخول الدكان كلمة «مرحبا» بخطف وباللهجة الحضرمية السليمة والحبيبة للقلوب.. وجملة «في أمان الله».. بالمطة المعهودة بتلك اللهجة إياها!!

وليس ذلك بغريب على «بوسلوم».. وهذه شهرة الخال سالمين.. فقد رباه والده المرحوم الخال.. يسلم ويجي.. تربية فريدة في بابها.. قامت في أساسها على قاعدة فريدة كذلك.. هي قاعدة المثل العربي القائل «إذا كان الكلام من فضة.. فالسكوت من ذهب». إذ يروي جلساء الخال يسلم ويجي إنه كان حريصاً على أن يشترط المحفوظ ابنه سالمين في مجلسه الليلي المعتاد.. وقد كان أيامها سالمين «زقرا».. أي غلاماً طيباً مرشحاً لشهرة شعبية عالية.

ففي ليلة من تلك الليالي الذهبية في سمرها.. وكان الوالد يحتبي حبوته المعتادة.. والقهوة دائرة.. والأخبار عن العملة متناقلة.. وحودات البلاد وما جد بها سائدة، تشعب الحديث أخيراً.. والحديث ذو شجون.. حتى وصل بلسان أحد السامرين إلى ما لا يحسن بالغلمان أن يشاركوا فيه.. فضلاً عن الخوض أو العوم به.. ولكن حيوية الغلام سالمين جعلته لا يتمالك نفسه.. فبرز من ركنه.. وهرش رأسه

الصغير.. وتمتم ببعض الألفاظ الممهدة لشرح معلوماته المدرسية القيمة في ذلك الموضوع.. فما أن هم الغلام بالكلام حتى بادر المرحوم الخال يسلم بفك حبوته.. وغمز بعينه.. وأشار إلى المحفوظ قائلاً في إيجاز.. وحكمة.. وتقنين جملته الخالدة.. يا وليد!! «سالمين كل تمر.. خذ من كل حرف أوله..» وترجمة أو حل هذه الشفرة العائلية الخاصة هي «سكت» بضم السين وضم الكاف وسكون التاء.. يعني «اسكت» أي أصمت ـ فصمت ـ أي سكت المحفوظ!!

منذ ذلك اليوم فكان لا يرى الابن سالمين إلا ساكتاً.. صامتاً.. ذلك الصمت الحكيم الذي علمته إياه جملة «سالمين كل تمر.. خذ من كل حرف أوله». الصمت الذي تمثل في مستقبل حياته العملية في دكان المضبى في الجملتين السالفتي الذكر «مرحبا» عند قدوم الزبون.. «وفي أمان الله» عند خروجه من الدكان.. حتى كادتا مع الأيام تكونان علماً مفرداً.. عليه!!

وبهذه المناسبة فإن للدكان نفسه.. تسمية.. وللمضبى.. عملاً ناجحاً.. قصة قصيرة تتلخص في أن بوسلوم حين بلغ رشده العائلي.. والمصطلح عليه حين يراد للشاب الاستقلال بحياته أراد أن يكون صاحب «مبسط» للصيرفة.. ولكن الوالد نصحة لتنويع الأعمال العائلية أن يتجه لعمل آخر.. ولما كان سالمين الشهير فيما بعد «بأبو سلوم» قد مل أكل اللحم المقدد والمصبر من الحنيت إلى اللخم ومتفرعاتهما وألف أكل اللحم الطازج فقد رأى بفطنته المعهودة فيه منذ كان يافعاً أن يفتح محلاً لعمل «المضبى» وحين قرر ذلك لم يشأ أن يطلق على محله اسم المطبخ.. أو المطعم.. أو «المأكلة» كما اقترح عليه هذا الاسم خاله

المنقطع على خلاف عادات أهله للدراسات اللغوية والتاريخية.. بل ترك للناس تسمية محله.. فسموه بالسليقة.. وبالتسامح «دكان بو سلوم» وهكذا كان!!

لقد ذهبت شهرة الخال بو سلوم.. وشهرة دكانه في مدينة جدة مذهبا بعيد الشأو.. حتى وصل الأمر بكثير من دلالي الكف.. والجلابه.. وأصحاب المغالق وسواهم إلى أنهم إذا أرادوا تكريم أفضل عملائهم أو زبائنهم أو أصدقائهم الخلص في الداخل وفي الخارج أن يذهبوا بهم إلى دكان الخال بوسلوم ليتمتعوا بأكلة «المضبي» التي لا تماثلها أكلة.. تماماً.. تماماً.. كما يذهبون اليوم إلى أشهر الفنادق.. وإن تنوعت في الفندق أصناف الأكل.. واقتصرت على صنف واحد في دكان الخال بو سلوم.. كما اعتاد كثير من الشبان والرجال وخصوصاً «المطاليق» منهم أن يذهبوا في الضحى من كل نهار ليأخذ كل منهم صحنا خشبياً صغيراً من مضبي الخال.. تلذذاً به.. واعتماداً على سهولة هضمه وخفته باعتبار أنه لا يعوقهم عن تناول وجبة الغداء الدسمة!!

ذلكم هو الخال سالمين بن يسلم ويجي.. في اقتضاب مضبي رشيق.. أما سبب شهرته بالاسم المحبب له «بو سلوم» فإنها ترجع إلى أن والده حين زوجه من ابنة خاله.. وبعد أن علم بأنه سيصير جداً وكانت قد أدركته الشيخوخة وخشي ألا يرى حفيده أوصى ابنه سالمين أن يطلق على المولود إن كان ذكراً اسم «سلوم».. ومنذ ذلك اليوم.. أي يوم التوصية.. وقبل ولادة المولود أصبح الجميع لا ينادون سالمين إلا بشهرته التي ذاعت وهي «بو سلوم» ولقد كانت لوفاة الجد ثم الوالد بعد أن أصبح الحفيد رجل أعمال ناجح رنة أسى وحزن.. وبالأخص لبقاء مركز المضبي الثابت شاغراً لم يقم به كفء حتى اليوم!!

هذا.. ويزجي كثير من الأخوان والمعارف. وكذلك نفس أفراد العائلة السلومية الثناء العاطر لإمام الحنفي الذي كان يقوم بتحفيظ جزأي عم وتبارك لابو سلوم.. مقابل رثائه الرقيق لأشهر عصامى برز في مجال «المضبي» الشعبي.. فسجل لبلدته جدة أطيب الآثار. ويقول هذا الرثاء في بعض مقاطعه:

سالمين.. كل تمرا.. وخلك عاقلا
واسكت.. إذا طال الكلام الدائر
واسمع.. وخذ من كل حرف أولا
من جملتي.. وافهم.. فإنك شاطر
وإذا العويلا جادلوك.. فقل لهم
إن السكوت لدى المجالس ساتر
وإذا أردت الشغل.. فاختر صنعة
غير التي فيها الجدود.. تعافر
سالمين.. والمضبي.. بعدك أكلة
ما داقها الجيل الجديد الحاضر
ما زالت الذكرى تروح.. ولا تجي
حتى ينام بوسط قلبي الخاطر
يا هل ترى.. يأتي لنا من بعدكم
من يعمل المضبي.. به نتفاخر
أم أننا.. يا بوسلوم.. ها.. كذا..
نبقى!! نعاير بعضنا ونكابر؟؟

إيكِيلْيَا

مع الأسف الشديد الذي لا يؤسف على مثله إلا في النادر.. والنادر لا حكم له.. إن أساطيرنا الشعبية الخيالية لا تتعدى في مجموعها أصابع اليد الواحدة.. أو على الأكثر أصابع اليد اليمنى وخمس أصابع أختها اليسرى.. مما يدل على أننا واقعيون جداً.. وإننا لا نؤمن إلا بما تلمسه اليد.. ويقبضه الكف من كل ما يعتبر حقائق ملموسة.. أو ماديات محسوسة.. معدودة.. مشمومة.. ممضوغة.. أو مزلوطة بسهولة.. مما دعا بعض الخواجات الذين كانوا في مستهل أو منتصف القرن الرابع عشر الهجري يقيمون في مدينة جدة إقامة دائمة يتهموننا بضيق الخيال وسعة البطن!!

وأذكر من بعض هؤلاء الخواجات الخواجه الإغريقي إيكيليا وأخاه يني وعائلته أصحاب البقالة المشهورة والتي كان حانوتها الكبير يقع على ناصية شارع قابل مما يلي السوق الكبير.. فقد كان ايكيليا عميد هذه العائلة ينعي دائماً على أهالي جدة.. عندما يشترون منه الجبنة.. والطرشي.. والزيتون اليوناني.. والباس.. طرما.. إنه ليست لديهم أساطير شعبية يقصّونها عليه مقابل أقاصيصه الأسطورية التي لا تنتهي عن سكان الأولمب وشخصيات الميثولوجيا الإغريقية الخرافية.. والتي لم تخل

منها الألياذة.. والأوديسا.. وكلها «بولى أوريا» يعني جداً عال!!

ولقد ظل ايكيليا الكبير كثير التشنيع علينا نحن أهالي جدة لخلو تاريخنا الشعبي من أساطيره.. مما دفعني وأنا لا زلت في مدرسة الفلاح طالباً فضل الله. أن أتحداه ذات يوم في عقر حانوته.. إذ قد ذهبت إليه ذات عصر قريب من المغرب باسم شرائي جبنة فلامنكا بقرشين.. وبعد قيامه بقرطستها.. نظرت إليه وجهاً لوجه.. وصحت فيه بصوت عالي «إن كنك رجال.. وخواجه.. صحيح بصحيح.. مر.. يعني زل.. على زقاق الخنجي بعد نص الليل.. على شان تعرف أن لنا أبطال أساطيرنا الشعبية.. وإنهم أحياء.. وموجودون بكثرة.. حتى في مثل هذا الزقاق الضيق والذي لا يتسع عرضه لمرور أكثر من شخصين.. بشرط أن يكون أحدهما نحيفاً جداً.. وذلك لتسهيل المرور.. قبل تنظيمه!!

وحين بحلق الخواجه إيكيليا بعينيه الزرقاوين في وجهي أنا الغلام الفلاحي الجداوي الذي يتحدى أبطال الأساطير اليونانية.. وأولمبها.. بزقاق ضيق.. هز رأسه.. ثم حسحس قليلاً في مكان شاربه الحليق.. ثم قهقه ساخراً من قولي هذا.. قائلاً في لكنة عربية اثينية مكسرة «وتفتكر يخبيبي أنا راخ نشوفوا ايه في زقاق الكنجي هقك دا؟» فسكت برهة قصيرة.. وتلفت ورائي.. وأمامي.. ويساري.. ثم وليت هارباً بعد أن عملتها فيه.. وعملتها هنا ـ يعني قذفت بها ـ أي بالكلمة الرهيبة في وجهه قائلاً له ثلاثاً وبصوت عال جداً: الدجيرة!! الدجيرة!! الدجيرة.

ذلك ما حدث من حوالي أربعين عاماً بيني وبين الخواجه ايكيليا.. هذا.. وكما يقول الأب عزيز ضيا في نثاره.. بضم النون.. الذي يبعثره يومياً في ركنه بعكاظ.. وبعد.. فيا ترى.. يا هنترا.. من تكون هذه

الدجيرة التي تتطاول إلى مكان الأولب؟؟ يخيل إلى أنني سمعت بهذا الاسم من قبل أما على لسان المسيو كاليداسا.. أو من بق السيدة جورج صاند.. أو من ملامح مسز اجاثا كريستي.. وهذا هو الأرجح كما رسمها الابن الفنان ضيا في لوحاته الأخيرة.. ووردت في أحد مقاطع قصيدة اليوت التي وردت في برنامج «سكن الليل» المدلل للابنة دلال!!

أي نعم!! كما يقول صاحب الأحاديث المسموعة عصراً. فإن لدينا من الشخصيات الشعبية الأسطورية شخصية لها سمعتها وشهرتها وخطورتها.. هي دون فخر أو فشر.. الدجيرة.. والدجيرة هذه ـ للتعريف لمن لم يعرفها ـ سيدة جنية من سيدات الجن المشهورات بحبهن للمداعبة البريئة.. وللمباسطة غير العدائية.. وقد تخصصت دون بنات جنسها في التريقة على من لا يعودون لبيوتهم إلا بعد منتصف الليل. وبصورة أخص على العسس.. وعلى القراء الذين يحيون ليالي الأربعين والحول بالقرايات في بيوت أهالي الموتى.. وربما.. وربما تعرضت الدجيرة لبعض مطاليق.. أو مشاكلة الحارة لكسر أنوفهم.. وللرقص.. بنبابيتهم ليلاً وعلى انفراد بهم.. رقصة المزمار!!

وجميع المعاصرين من كهول جدة.. ورجالها.. وشبابها أيضاً يعرفون جيداً زقاق الخنجي.. وهو الزقاق الملاصق غرباً لقصبة الهنود.. وشرقاً لبيت بادكوك القديم.. واسألوا عنه الأستاذ محمد بادكوك صاحب منتزه كيلو عشرة.. بلدي!! وهو أيضاً زقاق ينقسم إلى قسمين متلاصقين ضيقين لا يتعدى عرض أولهما الشرقي المتر الواحد.. ولا يزيد عرض ثانيهما الغربي على المترين. ولقد ذهب في الهدميات الأخيرة.. وأصبح جزءاً لا يتجزأ من شارع الذهب!!

في هذا الزقاق.. يا سادتي.. ولدت «الدجيرة» منذ أكثر من قرنين ونصف القرن لأبوين معروفين مسجلين في سجلات مواليد الجن.. وهما البعبع.. والهمية. وفي أحضان هذا الزقاق الضيق نشأت البنت نشأة خرافية الحياة.. خيالية التربية.. وكانا كما يؤكد العم أبو تريحب في جلساته بقهوة سوق الجامع أنهما أبوان محافظان.. ولكن الدجيرة العفرية كانت من صغرها بنتاً لعوباً. ثم لما أصبحت فتاة وتزوجت من أحد أترابها من طائفة «بسم الله، بسم الله» خالعت زوجها مقابل مهرها من صبيحة ليلة الدخلة.. ونعرت على حد قول أهلها المحافظين، أو تمردت. واستقلت بحياتها على حد تعبير زملائها المجددين العصريين التقدميين. فأصبح همها.. كل همها.. معاكسة رجال الأنس.. والتعرض لهم.. ومجافاة رجال الجن!!

ولقد انفردت الدجيرة بطريقتها الشعبية البلدية الخاصة.. فقد كانت كما يؤكد كل من قابلها أو تعرض لمعاكساتها أول ما تبدو ليلاً للمارة في زقاق الخنجي تبدو في شكل سيدة من سيدات البلد المحافظات.. وكلهن كن محافظات.. فهي ترتدي من الداخل الكرتة الطويل الذيل والأكمام.. وتحتها السروال المصري أو الحلبي.. وعلى رأسها المدورة.. وبيديها البناجر.. وبساقيها الخلاخيل ذات القلاقل.. ذات الرنين العالي.. وبقدميها البابوج والخف الأسطمبولي.. ملفوفة بالقنعة السوداء التركي أو الجاوي.. وعلى وجهها البرقع لا تظهر من ثقبيه إلا العينان الدعجاوتان.. وتمشي الهوينا في تعثر وتكسر ظاهرين مشية يسميها الخبثاء مشية «اليعسبة» حاملة بقشة.. أو بقجة كما صححها أبو تراب.. فحين يمر عابر السبيل من زقاق الخنجي أو من الأزقة المجاورة له.. ويراها

كذلك.. يطوف برأسه.. فالدنيا نص الليل.. طائف شيطاني خبيث.. حيث يسمع بأذنيه رنات الخلخال.. وصليل البناجر.. وتفاجئه النظرات الساحرة من ثقبي البرقع.. فلا يكاد يحاذيها أو يلتق بها حتى تتسرب لأنفه رائحة اللونطا ـ اللافندر ـ مديرة رأسه.. وحتى تملأ سمعه نغمة ساحرة.. منغمة.. مغردة.. قائلة له في سحر أخاذ.. وفي لهجة مهذبة «اوه.. من فضلك ممكن تشيل لي البقشة دي؟ وتوصلها معايا للبيت؟» فلا يجد العابر الشجاع الشهم.. وكل عابر في منتصف الليل من زقاق الخنجي شجاع وشهم.. لا يجد إلا الإجابة الفورية المتلهفة.. هاتي يستي.. أنا تحت أمرك.. فتضحك.. ثم تناوله البقشة.. وتتقدمه بخلاخيلها.. ورنات بناجرها.. وبقوامها اللدن يتثنى.. ويتكسر.. ويتعثر في غندرة مثيرة!!

وهنا.. كما يقول العم أبو تريحب.. يبتدىء اللي.. حيث تقطع الدجيرة زقاق الخنجي الضيق جداً وتكاد أنفاسها تحرق مرافقها حامل البقشة.. ذاهبة.. أيبة.. لمرتين أو أكثر مما يدخل الرهبة تدريجياً بقلب الشهم الشجاع.. وفجأة.. وحين ترسل الدجيرة ضحكاتها المجلجلة المدوية دون انقطاع.. يصرخ المرافق محاولاً الهرب.. ولكنها تسد عليه طريق الفرار.. فيبتدىء في الصراخ.. ثم العويل.. ثم.. إن الصراخ ممن لا يتحكمون في عضلات بطونهم.. يجعل المرء.. يأخذ في أسباب القذف على ملابسه بمخزونه البشري متقطعاً يابساً.. أو سائلاً في إسهال متوال طويل.. وحينذاك.. وبعد أن تكون الدجيرة قد عملتها فيه تختفي.. كفص ملح ذاب.. من أمام عينيه.. ومعها بقشتها.. بعد أن تودعه بقهقهة صاخبة رهيبة!!

تلك هي لعبة الدجيرة في زقاق الخنجي مع العابرين العاديين. أما حين يكون المار أحد المطاليق أي مشاكلة الحارة فإنها في نهاية اللعبة تأخذ منه عصاه.. أو نبوته المزقر.. وترقص له رقصة المزمار.. دائرة حواليه.. وهو جامد في مكانه لا يتحرك.. ولا يسمع له صوت إلا أصوات الأرياح السفلى مشفوعة كذلك بقذف بعض المخزون البشري.. في فزع وارتجاف.

ذلكم.. هو القسم الأول من سيرة بطلة من أبطال أساطيرنا الشعبية.. فإلى القسم الثاني.. مرددين معاً.. هذه المقطوعة.. من شجرة أو على الأصح الأرجوزة البلدية الجماعية لا تغني إلا في حلقة مقفولة.. مفقودة.. ومن حولها حملة الطيران.. بتشديد وكسر الطاء:

أنا شفت.. يخويا.. الدجيرة..
الله!! الله!! يبوطيره

في زقاق الخنجي.. ولوحدي..
الله!! الله!! يا وعدي

أنا شلت البقشه حقتها
بايديها.. مدتها

ومشيت.. معاها.. المشوارا..
ورقصت.. وراها.. المزمارا

الله!! الله.. يبوطيره
وبعينك شفت الدجيره

دي عيونها: عيون الغزلان
والبرقع.. والقنعه: جناني

لا تــقــول لـــي: كـــانـــي.. أو مـــانـــي

مـــا احـــلـــى الـــبـــرقـــع.. بـــزمـــانـــي

وزواجـــي.. يـــخـــويـــا.. الـــعـــمـــيـــانـــي

وبـــعـــيـــنـــك.. شـــفـــت الـــدجـــيـــرة!! الله.. الله.. يـــبـــوطـــيـــره

الدُّجِّيَرهْ..

القسم الثاني.. بلدي على عربي هذا.. وقبل أن ندخل.. أي أن نخش.. في سرد القسم الثاني من سيرة الدجيرة.. تكملة.. أو بقية للقسم الأول.. والبقية في حياة الجميع.. نود هنا أن نطمئن الأخ الفاضل الذي سألنا صباح اليوم تلفونياً عما إذا كان فعلاً.. لا اسماً للدجيرة هذه وجود سابق؟؟ فنقول له ـ بكل صدق وفي تواضع مشكور ـ أجل!! فقد كانت المرحومة على لسان أهلها طبعاً.. حديث المدينة نهاراً لا ليلاً. وكان من المعتاد أن يذهب الناس إلى زقاق الخنجي ظهراً لكي يشاهدوا أثار معاركها الليلية.. وتلك حقيقية لا يمكن أن يطمس تاريخ أساطيرنا الشعبية بها مكابر.. أو جاهل!!

وبعد.. فقد جاء في بعض روايات جيران زقاق الخنجي أنهم جميعاً. أو معظمهم على الأصح.. قد سمعوا ذات ليلة بأمهات أذانهم الحوار التاريخي الذي دار بين والدي الدجيره.. وهما السيد.. البعبع.. والسيدة.. الهميا.. بغياب ابنتهما.. وكان كالآتي:

الوالد البعبع: ـ أنا شايف ترى.. يهميه.. إن البنت دجيره رايحه تضيع مستقبلها أكثر مما ضاع.. وأنو ما راح يجي لها ولا عريس.. لأن سمعتها..

الأم الهمية مقاطعة: ـ سمعتها؟؟ دي بنتي اشرف واطهر من كل بنت جنية في الحارة!! بس هي تحب تعاكس البني آدم.. مزاج يا أخي!!

الوالد البعبع: ـ موهو هادا اللي مخوفني على مستقبلها.. ومستقبلنا كمان.

الأم الهمية: ـ وايش دخل مستقبلنا في الحكاية دي.. يسي بعبع؟

الوالد البعبع: ـ قلتي لي.. شوفي يستي.. دحين لمن البني آدم يولف على وحده من جماعة «بسم الله.. بسم الله».. على قولهم.. ويحكي عليها.. ويخصر سمعتها.. يقوموا الإنس يتجرؤا.. وما عاد يخافوا من جماعتنا!

الأم الهمية: ـ بس كدا؟.. لا.. اطمئن!! ما دام نحن هنا.. والدنيا ضلام.. وكل ست انسيه ما تنيم بزورتها إلا لمن تفجعهم بالبعبع والهمية.

الأب ضاحكاً: ـ اللي هم أنا.. وانتي.. موكداً؟!

الأم الهمية: ـ طبعاً!! طبعاً!! على قول جارنا اللي من غير شنب.. واللي بيسموه اجرود افندي.

الدجيره داخلة ومقاطعة والدتها: أفندي؟ أفندي؟ لا.. لا.. شوفي يماما أنا ما أحب الأفنديات دول.. وأنا نهار ما ابغي أتجوز.. أتجوز على كيفي أنا.

الأم الهمية: ـ إنتي حرة.. يبنتي.. تتجوزي اللي يعجبك.. واللي يكون من «تيبك».

الأب البعبع: ـ أنا ما قلت لك يهميه.. ألف مرة.. لا تتكلمي

بالانقليزي!! غايتو.. انتي يبنتي.. زي ما قالت لك أمك.. حرة.. اتجوزي اللي يناسبك واللي يكون من «طنجك» من «تيبك» على قول أمك.. وإلى هنا انتهى هذا الشهد المسموع من جيران زقاق الخنجي - والذي هو جزء من تمثيلية «البعبع ومراتو» ـ وبانتهائه أخذت الدجيرة حريتها الكاملة.. وبتصريح من أبيها ومن أمها.. فابتدأت في توسيع عملياتها دون حرص على سمعة العائلة.. ويقول الجيران أنها منذ تلك الليلة أصبحت لا تفارق الشبابيك.. والنوافذ.. وسطوح بيت أهلها.. في أغلب الأحيان!!

ونعود لما كنا فيه.. فنقول.. أما بالنسبة للمقرئين في كل أربعين.. أو حول بيوت الأموات.. فقد كانت لعبتها معهم تقتصر على زيادة رنات الخلاخيل بقدميها.. وصلصلة البناجر بيديها.. ولقد حدثني المرحوم والدي.. وهو أحد قراء جدة القدماء والمشهورين.. إنه كان مع بعض الفقهاء البصيرين ـ أي العميان ـ في قرية ببيت الخال باربعه المجاور لمعصورة أبو الخيور القريبة من زقاق الخنجي.. وقد اشترط عليه الزملاء البصيرون الثلاثة أن يتجنب السير بهم في الزقاق.. فقد سمع أحدهم من بعيد لبعيد صوت الخلخال.. ولما كان الوالد.. وانت تعرف طبع الوالد على تعبير الزميل حسن قزاز.. محباً للمداعبات الإخوانية.. فقد أفلت يد أولهم وهو قائد المجموعة صارخاً: يا ساتر! هو نحن يا مولانا سرنا في وسط الزقاق.. لا حول ولا قوة.. إلا بالله..

عند ذلك.. احتار الزملاء الثلاثة.. وتخبطوا في سيرهم.. ثم كفشوا في بعضهم.. كفشة أعمى في ضلمه.. بحق.. ويقولون ـ فيما بعد ـ إنه لم ينقذهم من مكر الدجيرة إلا أنهم بادروا حالاً إلى تلاوة آية

الكرسي وبصوت مرتفع جداً.. وقد كرروا التلاوة لسبع أو تسع مرات.. ولم يقطعوها إلا بعد أن سمعوا صوت الوالد وهو يقول لهم.. لقد صرفها الله عنا.. فاندفعوا ضاحكين مقهقهين.. متعاهدين فيما بينهم ألا يقبلوا بعد الليلة هذه قراية في أي بيت مجاور أو قريب من زقاق الخنجي.. محل الدجيرة!!

هذا.. وقد روى لي أحد المتولين عملية هدم البيوت التي فيها الزقاق لعمل الشارع الجديد.. إنه حين وصل الهدم للبيتين اللذين يقع بينهما.. وهجم الدركتر عليهما سمع صرخة نسائية حادة.. اعقبتها ضحكة رهيبة طويلة.. ثم صوت خفي من أصوات طائفة «بسم الله.. بسم الله» وهو يهتف بسكان الزقاق من جماعته «الحقوا.. عزلوا.. قوام.. قوام.. فليس بعد اليوم ظلام» وهكذا بهجمة دركتر باسل شجاع اختفت حياة الأشباح والأوهام!!

تلك هي.. يا سيدي السائل غير الجامد صباح اليوم.. حياة إحدى بطلات أساطيرنا الشعبية.. الدجيرة بخلاخيلها وبناجرها وبقشتها وضحكتها الساحرة.. وقهقهتها الرهيبة.. الحياة التي بدأت مع الظلام وانتهت بوصول التيار الكهربائي إلى موضع الزقاق الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من شارع طويل عريض لا يخلو دائماً من الزحام! وترى.. وبالمناسبة.. وقبل أن أنسى.. فإن الخنجي مالك البيت المسمى به الزقاق كان أحد كبار تجار جدة.. وأصله من الهند.. وكان قصيراً.. وظريفاً حتى في إطلاقه على الكباب الميرو.. كباب كراشي!!

أما سبب تسمية هذه الفتاة الجنية وإحدى بطلات أساطيرنا الشعبية «الدجيرة» عامياً وشعبياً فيرجع إلى قصر قامتها مما أصبحت معه كلمة

دجيرة ذائعة شائعة مطلقة على كل قصير مفرط في القصر.. أما ما قرره الأستاذ عبد القدوس في كتابه «مدينة جدة الجديدة تحت الطبع» فيقول إن الدجيرة آتية من لفظة «الديجور» من دياجير ودياجر.. وهو الظلام الذي هو أصل البلاء في كل شيء.. وهو قول مردود عليه.. ومع ذلك.. فالله أعلم.

وأخيراً.. ولله مزيد الحمد.. فقد وافق أحد الأعضاء المهتمين بمتحف الآثار إلى الحصول على النسخة القديمة والوحيدة من المرثية الأنسية الجنية للمدموزيل «الدجيره».. وقد حفظها في علبة من البلاستيك حتى حين فتح الباب.. وتعتبر هذه المرثية دليلاً قطعياً على صدق الرواية العربية التي تقول أن لكل شاعر قريناً من الجن يوحي له به إذا كان حليفاً لسكان وادي عبقر.. وإليكم بعضاً منها:

قفوا عند الزقاق.. إذا أتيتم
إلى الخنجي.. وقد حبك الظلام

تروا دجيرتي الحسناء.. دارت
هنالك.. حيث فاض بها الغرام

عليها القنعة التركي.. تبدت
ككيس الفحم.. ينقصه الضرام

ببرقعها الطويل.. وأين منه
ومنها.. في حلاوته.. اللثام

وقد شنت.. برجليها.. ورنت
خلاخيل.. يشخلعها القوام

لكم فجعت.. وكم زبعت قلوباً
جرى أصحابها سحراً.. وناموا
فيا أخت العفاريت النشامى
وبنت الجن.. في الخنجى أقاموا
لسوق أقيم في الأَطلال.. قهوا
أسميها: ـ دجوا دجيرا ماموا!!

سَبْعَ اللِّيلْ..

ميناء جدة.. التي هي دهليز الحرمين ـ أو عروس البحر.. كان ولا يزال الميناء الأول والأكبر للمملكة ـ ومركز التجارة الرئيسي لها.. كما أنه ـ أي الميناء.. والميناء كلمة يونانية الأصل للعلم الكريم.. كذلك بالنسبة للحج. وكما هو معلوم للعموم فقد كان قدوم الحجاج كلهم يتم عن طريق البحر.. وقبل أن يتم عمل الميناء الحاضر والذي كان للعبد لله شرف المشاركة في التفكير المبدئي فيه وفي المساهمة بتأسيسه ـ كمدير حج عام كانت بواخر الحجاج تقف في عرض البحر بعيداً عن الرصيف ليقوم البحارة.. وكلهم من حارة البحر التي كانت تعتبر الحارة الرابعة لجده ضمن محلة اليمن.. بنقل الحجاج من عرض البحر في الأبوات.. واللنشات. ولقد كانت لهؤلاء البحارة بطولات نادرة في هذا العمل الجبار الفريد ـ وخصوصاً وقت الأنواء.. وعند اضطراب الأمواج.

وبالمناسبة.. فقد كان لميناء جدة المائي بعرض البحر في أيام الخليف.. منظر شعري رائع.. وبالأخص في الليل.. فكأن البواخر فيه قوافل جمال برية.. تزينها الأضواء المتلالئة في أنحاء قريبة متساوية الصفوف.. وذلك حين وحيث تقف هناك لأيام ولليالي عديدة مؤلفة من أكثر من عشرين باخرة متباينة الأحجام.. مختلفة الجنسيات في انتظار

عودة ركابها الحجاج بعد أداء النسك لإعادتهم إلى بلادهم ـ كما كان أهالي جدة يقضون أيام الخليف.. أيام وليالي عيد الحج في بشاك وجماعات داخل تلك البواخر ـ ومعهم أكلهم.. وأدوات الشاهي.. وألعابهم من الضومنا إلى الداما إلى ورق.. الجوكر.. مع قيامهم بالتجول على كل البواخر الموجودة بعرض البحر وعودتهم لباخرة نزولهم الدائم التي اختاروها لذلك ـ هذا ـ وبالرغم من شهرة عديد من رجالات البحر من بيت أبو داود وأبو صفيه ـ وسلامه ـ والمناع.. وعنبر خالص ـ إلا أنها ـ أي الشهرة.. عقدت لواءها لشاب أسمر اللون.. سمهري القوام كما يقول التشبيه العربي ـ كأنه الرمح الطويل ـ أو الشوحط الأطول لا عقد فيه وقد طلع هذا الشاب فجأة كما يطلع أو ينبت النبات الشيطاني ـ ومع قدوم الشهرة المفاجئة له ضاع اسمه ولقبه الأصليان.. وبقي له اسم «سبع الليل» وربما ساعد على ذلك أن سبع الليل هذا كان أبكماً.. لكنه لذكائه كان يلتقط الكلمات من شفتي محدثه وكأنه جهاز التقاط حديث.. كما كان يلتقط ويفهم الإشارات ويجيب عليها بصورة أسرع من إشارات مورس!!

ولقد كان المنطق يقضي بأن يسمى «سبع البحر» لأنه بحري أصيل ـ ولكن لأمر ما أطلق عليه اسم «سبع الليل» وسبب هذا «الأمر ما» إنه كان كثير التجوال بالليالي.. والمظلمة منها على الأخص.. فلا تكاد العين تراه حين يبرز بفحمة جلده السوداء من قلب الليل الأسود البهيم.. حيث كانت الإضاءة في جدة بالفوانيس.. فوانيس البلديه ـ التي يدب فيها النعاس من أول الليل إما لخراب في بلبلة الفانوس.. أو لنقص الغاز نتيجة لاتساع الذمة آنذاك لشفط نصف أو ثلاثة أرباع المقرر وبيعه

بالتفرقة.. أو بالجملة!!

وكان ظهور سبع الليل المفاجىء للمارة بسواد جلده المتفق مع سواد الليل مصدر خوف ورعب في بداية الأمر ـ ولكنه أصبح مصدر اطمئنان وراحة. لأن ظهور سبع الليل المفاجىء هذا إنما كان لعرض خدماته الكبيرة والبسيطة فهو يستطيع أن يوجد المعدوم في الأوقات المتأخرة لطالبه سواء كان هذا المعدوم خبزاً للأكل.. أو دخان فراطة للكيف.. أو دفاتر لف.. أو كبريت.. أو نداء داية للتوليد.. أو مقرىء يسهر على الميت.. أو.. إلى آخر هذه الأوات المتعددة المطالب والأنواع.

وعندما اطمأن سبع الليل لشهرته الليلية الواسعة.. أخذ حينما لم يكن عمل البحر يقتضي وجوده يظهر للناس في النهار عارضاً خدماته أيضاً فيه.. وكانت فزعاته المهمة تتجلى كذلك في ليالي الأفراح.. وفي المآتم على السواء.. ولا يزال المخضرمون.. وحتى جيل الشباب المنحدر الآن للرجولة أو للكهولة ببطء.. يذكر سبع الليل ويتذكر خدماته.. وهل يمكن لأحد منهم أن ينسى السبع؟؟

ولا نحتاج أن نقول أن عمله البحري ذاته كان مصدر إعجاب وتقدير.. فهو السبب الأول في شهرته ـ لقد كان سبع الليل يتسلق الدقل ويلف الشراع في لمح البصر ـ حتى لقد أصبح المتخصص الوحيد في وضع الأعلام للقنصليات والسفارات بأعلى البنايات.. وإلى مدى جوي بعيد.. كما كان.. سريع الغوص في البحر إلى قامات وقامات.. حيث يطفو بسرعة مماثلة وفي يده ما سقط من صاحبه عفواً ـ أو ما أسقطه عمداً ليلتقطه السبع ويعيده إليه.. وكان يتم ذلك في مجال الاختبار لسرعة غطسه في البحر.. وقبه منه.. في لمحات قصيرة..

وكان سبع الليل كاللولب ـ أو كالصاروخ السريع في دورانه على البواخر أيام الحج وقضاء لوازم أو نواقص كل بشكة.. مع عدم إغفاله البشك الموجودة في جزيرة أبي سعد أو جزيرة الواسطة أو حتى جزيرة الجن المنعزلة لوحدها في وسط البحر ـ وحين تعطل عمل وسائط النقل البحرية أو خف كثيراً بعد أحداث الميناء.. سهر سبع الليل بسرعة في معرفة سائقي السيارات وفهم موديلاتها.. وملاحقة المحتاجين للخدمات بها من سواقين ومساعديهم ـ وذلك يدل على حاسة القابلية النقلية للتطور الدائم فيه ـ ويقال إنه كان يطمع في آخر أيامه في الخدمة الطيرانية.. فقد شوهد مراراً يقف على أرض المطار أو قريباً منه مع مجاذبة الكباتنة وطاقم الطيارات أطراف الحديث بطريق الإشارات بالشفاه.. أو بأصابع اليدين.. ولم يمنعه بكمه.. ولا سواد لونه.. ولا أميته عن تنويع نشاطاته في كل مجال المواصلات.. والنقل!!

لقد كان الناس لوقت غير بعيد جداً يتناقلون الجمل المتتابعة مثل: عليك وعلى سبع الليل!!.. شفت لي سبع الليل؟؟ ازهم لي سبع الليل!! أهوجا.. جا سبع الليل! إلى آخر.. وفي ذلك دلالة قاطعة على فعالية وديناميكية ـ حسب التعبير العصري ـ السبع.. وعلى حاجة الناس له.. وعلى الثقة التي أولوه إياها.. وكذلك على نشاطه الوفير في أداء الخدمات بأنواعها ـ في ضحكة تبرز حلاوة أسنانه البيضاء التي يفضح ببياضها لون بشرته السوداء..

وأخيراً.. فلا أذيع سراً إذا قلت إنني قبل أمد طويل بعض الشيء قد دخت في البحث عن سبع الليل ـ وتقصّي آخر أخباره.. وذلك لمعرفة وجوده ـ أو تاريخ وكيفية وفاته.. حتى علمت في النهاية أن الله قد تغمده

برحمته في هدوء وانزواء ودون العلم بذلك حتى من عارفي خدماته.. وكان لا بد بالنسبة لتاريخ شخصياتنا الشعبية من تعقب هذه الشخصية التي كانت قبل ـ أن أنسى.. من مكملات الفرحات العامة وخصوصاً فرحات العيد حيث تجد سبع الليل في محلات أعياد اليمن والمظلوم والشام.. وهو على استعداد تام لأن يتلقى بالأحضان من تقذف بهم المداريه.. في الألواح ـ أو الشباري ـ أو صناديق العيد من الأطفال والصبيان قبل أن يسقطوا على الأرض ويحدث لهم ما لا تحمد عقباه ـ كما تخصص بعد اعتزاله الخدمات العامة لكرة القدم. حتى أصبح الوحيد المنفرد لتحضير ملعب الصبيان بأجر وبدونه في المباريات الكبرى!!

ذلكم ـ هو سبع الليل بلونه الأسمر.. وبأسنانه البيضاء.. وبثوبه القصير.. وبتقشمط وسطه بالبقشة الكشميري.. ورأسه بالعمة ذات العذبتين.. العذبة الطويلة المرسلة وراء ظهره والقصيرة المدلاة على شحمة أذنه اليمنى.. وبأقدامه الحافية المتشققة يجففها بالتراب.. بعد أن ملت ماء البحر..

أما سبب تسميته «سبع الليل» بدلاً من سبع البحر حيث عمله وحياته ودنياه ـ فيرجع إلى ما أسلفنا من بروزه المفاجىء بسواد جلده من إهاب الليل الحالك..

وبعد.. فقد استمعت قبل ليالٍ مضت إلى أحد البحارة الشيوخ.. وهو يستمع إلى أغنية قديمة حلوة للأستاذ محمد عبد الوهاب ـ وكل أغانيه القديمة حلوة ـ حيث طلب هذا البحار الشيخ من الدكتور عبد الله مناع أن يكلف عمه اسماعيل ليتوسط لدى أستاذه الفلاحي القديم لعمل مقطوعة تلحن لتغنى إحياء لذكرى فقيد المروءة سبع الليل ـ فكان له ما

أراد ـ أو من ـ تلال ـ بالتاء بدل الطاء ـ على العود المنفرد والذي كان السبع يميل إليه ـ ولا يمل من سماعه: ـ

يا عروس البحر.. يا ذات الشراع
واسع الامداء.. باعاً بعد باع..
راقص المقداف.. في ذاك الدراع
مده في بحرنا.. سبع السباع!!
كيف تنسين فتى حلو السواد
أبيض الأسنان.. ذري الفؤاد..
يقطع الليل.. سريعاً للتنادي
يجلب العازة من أقصى البلاد!!
لافف العمة.. محبوك الحزام
حافي الرجلين.. عاماً بعد عام..
فلفلي الشعر.. مياد القوام
بين بشكات.. وحشد.. وزحام!!
أين سبع الليل.. يا بنت الليالي
أين؟؟ يعني أين القاه.. قبالي؟؟
خبريني.. يا ابنة العم هلال
كيف ضاع الواد.. يا بنت الحلال؟؟؟

سِليمانُ مُلُوخِيَّه..

.. من أمثالنا الشعبية القديمة التي كانت متداولة.. وقد لا تزال.. مثل شعبي يقول «الكتاب نصف المواجهة».. والمقصود بالكتاب هنا هو الرسالة أي الخطاب يبعث به محرره إلى سواه يطمئنه فيه إلى أن الكل بخير.. وإن الشوق عظيم.. وإن المطلوب هو إرسال تنكة زمزم إذا كان المرسل إليه بمكة.. أو شوية تمره.. جادي على برني.. إذا كان المرسل إليه بالمدينة المنورة.. وإن ما تضمنه الكتاب أو الرسالة أي الخطاب يعتبر بمثابة وسيط حي يرى الشخص المرسل الشخص المرسل إليه به ـ وكأنه يشاهده أمامه.. فيدردش معه ما شاءت لهما الدردشة!!

أما إذا كان الكتاب مرسلاً إلى خارج البلاد فموضوعه أما تجاري بحت يتضمن وصول البضاعة المرسلة أو طلب بضاعة جديدة من أرز أو سواه مع تحديد النوع والكمية وإن «الصر» مرسل لكم بالبابور.. أي بالباخرة.. جها نقير أو علوي المسافر من جدة يوم كذا حسب إفادة وإشهار المنادي العم سديق حلواني المنتهي بجملته التقليدية والحاضر يعلم الغائب.. وعاشق النبي يصلي عليه!!

وإما أن يكون الخطاب خاصاً بالعلم بإجراء العملية ونجاحها على يد الدكتور ووترفيلد في بنط السودان ـ أو بالبر المصري على يد الدكتور

الكاتب اومورو... لينتهي بجملة والحمد لله اللي ربنا قدمك على خير.. والجماعة والبزوره كلهم يقبلون أياديكم ورا.. وقدام..

ذلك هو وضع الكتاب أو نصف المواجهة لدينا وموضوعه منذ أكثر من نصف قرن فما فوق.. وبصورة عامة وأساسية فقد كانت الكتب أو الرسائل والخطابات ولا تزال أدوات اتصال في حياة الناس نشأت بحكم ابتعادهم عن بعض لعمل أو لعلاج أو لنزهة لتوثيق الروابط والارتباط بينهم أينما كانوا.. ولتبادل المعلومات.. وأحياناً.. أحياناً لبث الأشواق الحارة فقط لا غير زيادة ـ وهنا يتلاقى نصف المواجهة بالنصف الحلو!!

والأدب العربي القديم حافل بتصنيف أنواع «الكتب» أي الرسائل ـ وبأدابها ـ وما يجب أن يقال في البداية من أنواع التحية والسلام.. وألقاب المرسل إليه وتفخيمه بكلمة الأمجد ـ الموقر ـ العزيز ـ الفاضل.. وما تختتم به من قفلات متعارف عليها بالسماع وبالتداول.. ولقد تفرغ أدباء كبار لهم وزنهم من تقرير ومن تصنيف آداب الرسائل بداية وخاتمة لها.. ونرجوا أن يتوفق أحد شبابنا الدارسين لعمل «رسالة» في بحث موضوع الرسائل الشعبية لدينا من كافة أطرافه الموضوعية والبريدية إن شاء الله.

وكما سبق فالمهم أولاً وأخيراً إن الكتاب كان لدينا ذا أهمية اجتماعية شعبية كبيرة ـ فهو.. وبالأخص قبل المواصلات البرقية والتلفونية ـ كان ولا يزال نصف المواجهة.. ومن أجل أهميته هذه فقد نظمت الحكومات كلها عملية توثيق الصلة والارتباط بين مرسل الكتاب والمرسل إليه.. سواء كان عادياً أو مسجلاً بكل ما يقتضيه التنظيم وتطوره المستمر.

ومن هذا المنطلق الاجتماعي الهام.. كما تقول صحف اليوم.. وبالنسبة لنا فقد نشأت بحكم الأمية القديمة لدينا آنذاك طائفة تعرف باسم الكتاب العموميين.. وكان مقرها قديماً في جده في سوق الجماله بتشديد الميم المفتوحة ـ .. وذلك لخدمة من لا يفكون الحرف فينوبون عن المرسل للكتاب في ترجمة وترتيب وشرح ما يريد الافضاء به للمرسل إليه ـ كما كانت بعض العائلات بجده تستعين بتلاميذ المدرسة من ابناء الجيران في صياغة الكتب لذويهم المسافرين.. ولقد كان هذا البند العائلي مصدر رزق ثابت للطلبة.. واشهد إنني كنت واحداً منهم ولما يتجاوز عمري الحادية عشرة.. وبضعة أشهر منعاً للالتباس.. وطرداً للحسد.. وخزقا للعين..

من هذه النقاط البريدية المسجلة وغير المسجلة تستحب المقارنة بين ما تفعله اليوم مصلحة البريد وما كان يقوم به الموزع الشعبي الشهير العم سليمان ملوخيه.. كما ينبغي طبعاً التعريف المبدئي بهذه الشخصية الشعبية قبل الدخول الكامل في هذه المقارنة المستحبة.

فمن قبل أكثر من نصف قرن من الزمان كان الماء أمام زاوية المغربي القريبة من باب مكة والمستقرة بمكانها حتى الآن يرى مركازاً عتيداً يتصدره الشيخ «ملوخيا» عميد بيت ملوخيا الأشهر أو الأول.. وحوله على الكراسي الشريط الثلاثة التي يتألف منها المركاز ـ أو بالأرض على الصناديق والأقفاص يجلس «العيال» حسب تعبيره.. وأمام المركاز وحوله تتناثر مواد الشغل ـ وأدوات الأعمال.. وهي قفصان السمك المرسلة من جدة إلى مكة.. ومشابيك «جمع مشبوك» ـ البرشومي مع النعناع والريحان الواردة من الهدا.. وتنك الزمزم الواصلة من «الله

يعمرها». . وطرود التمر جادي على برني وبصحبتها الورد المدني والعطره. . وقبل وبعد هذا ـ وهو المهم ـ رزم الرسائل ـ أو الكتب التي هي نصف المواجهة!!

وابتداء من البند الأخير ـ وهو رزم الكتب. . ومن هذا المركاز العتيد سوف نتعرف على البارد ـ ودون استعجال. . ببطلنا الشعبي الناشىء «ملوخيه الصغير» الذي صار فيما بعد علماً معروفاً في طول مدينة جدة وعرضها باسم عم «سليمان ـ ملوخيه» رجل البريد الأول ـ والموزع الذي لا يخطىء أبداً في معرفة مقر وعنوان المرسل إليه مهما كان وأياً كان وهو خال أولاد باعامر ـ وصاحب الأوليات التي أصبحت لمدة طويلة رغم عماه ـ وفقد بصره العزيز فيما بعد ـ قواعد يستنير بها كل موزع للكتب التي هي نصف المواجهة ـ والتي أعد منها ـ ولا أعددها الجمل الآتية: ـ

أ: سيبك ـ يواد ـ هو أنا يغباني أحد في جده؟؟

ب: روح يمين من هنا. . تلقاه جالس على الدكه ـ في القصبة ـ أي قصبة الهنود!!

ج: امشي على طول ـ أهو ـ أهو ـ عمك باقعر ـ وبعدو ـ في القهوة ـ الكركشان!!

د: مرحبا يا فندي!! حيا الله الشيخ!! صباح الخير يا با!! كل سنة ونت طيب!!

. . بالمركاز نشأ ـ وفيه درج ـ ومنه تعلم. . ويا ليت أولادنا اليوم يعلمون. أو يتعلمون إن من «المركاز» تخرج آباء لهم لم تفقسهم البيضات إلا وهم كتاكيت يصيحون قبل الأوان ـ وتلك في باب فلتات اللسان مجنحة بين مجنحات أضيفا في الباب الأستاذ محمد حسين زيدان. . دون

أن ندخل معه في المباراة المعروفة ـ تقدر تداقش؟؟ اهي بيضه لبيضه؟؟ ـ أو «جملي يمشي ـ وجملك ما يمشي؟؟!!».

فهكذا ـ ودون إيحاء ملحوظ أو مسموع نشأ ودرج وتعلم العم سليمان ملوخيه ـ وشيئاً فشيئاً ـ كما تقول التعابير الحديثة استظهر واستنطن أصول توزيع البريد لأهله. . حسب تعاقد والده مع الجهة المختصة بمسؤوليته كشيخ للحمارة بتشديد الميم المفتوحة. . ولكن لما كان الوالد الشيخ ملوخيا الكبير معروفاً أو متهما من «سيدنا» كما كانوا يسمون الشريف بأنه «سياسي». . وكلمة سياسي حينذاك كانت تطلق على كل من جاء على طرطوفة لسانه اسم وكالتي الأنباء العالميتين «روتر» و«هافابس»، والأولى انجليزية والثانية فرنسية. . فقد كان الرجل في حكم المتضايق في حياته والمقيدة نشاطاته الكلامية والاخبارية ـ ولذلك ركز على نجله البكر سليمان والشهير فيما بعد باسم «ملوخيه». . ملوخيه حاف. . دون خبز أو غموس آخر. . ليكون خليفته الأوحد. .

ونظراً لأن البحث الآن مقصور على شخصية «ملوخيه. . . الابن سليمان» باعتباره الشخصية الشعبية التي وهبت جده سمعتها البريدية الأصيلة. في ذلك الحين. . فإن من اللازم. ومن كل بد. . كما كانت تقول عمتي. . أن نعطيه حقه مستقلاً عن أبيه ـ فلقد كان شاباً نشيطاً. . حديدي البصر. . لا يكل من الشغل ولا يمل. . كما أنه كان «نازكا» بتعبير تلك الأيام. . أي أنه يعرف كيف يلف العمة ويرخي عدبتها ـ ويرج الحزام. . ويتقطب المداس «أبو خرزين». . ويكوي الثوب اللامس بمزاجه ـ ويرش قليلاً من «اللونطه». . على أطراف وداخل ملابسه. لتفوح رائحته الشذيه ـ ويمضغ أحياناً التامبول ليبصق بفضلاته على الأرض إعراباً على

اشمئزازه من كل من يكل استلام رسائله إلى الصبيان بدل استلامه لها بنفسه.

كما كان المرحوم سليمان ملوخيه حريصاً على معرفة من أخلى دكانه القديم ونقل لغيره ـ وعلى من استأجر مكتباً في شارع قابل الجديد.. واستغنى عن مقره في الخاسكية. أو قهوة الجمالة أو سوق الندا ـ ومواظباً على الاتصال بالبلدية لمتابعة الأسواق والشوارع والحوادث المستحدثة. ومدمناً على زيارة المحكمة للعلم بمن طلقها زوجها وسكنت مع أهلها أو لوحدها في بيت جديد. وطائفاً على الجوازات والشرطة لأخذ فكرة عن المهاجرين من بلادهم لاستيطان مدينة جدة.. أم الرخا والشدة.. والإحاطة بحالات الغرباء الجدد.

هكذا بدأ الشاب سليمان ملوخيه مهمته البريدية تحت أنظار وأسماع والده وبقية الرجال والعيال المبتدئين معه من أمثال «محمد عقيقي».. و«حسنين» وسواهما من خريجي المركاز العتيد.. وكذلك ايضاً انطلق ملوخيا الصغير رحمه الله متخطياً سواه ولداً نازكاً امتيرياً همه الرسائل للرسائل ـ على طريقة الفن للفن.. فلم يحدث يوماً من الأيام أن تأخر مكتوب من كاتبه إلى مرسله ـ فلا جهل بالعنوان إطلاقاً.. ولا تعلل بأن المرسل إليه «لم معروف» فالجميع لديه أولاد بلد ـ ومن حق ولد البلد على ابن بلده أن يعرف عنوانه ومقره ـ وإلا فهوا إما دخيل جاهل جهلاً مطبقاً لا يجوز ـ وإما أن يكون متهاوناً في عمله.. والتهاون غير وارد في عرف أصحاب الفن والأصول..

بهذه القواعد الفنية.. وبالأمانة ـ وبحب الصنعة للصنعة وبالإخلاص والدقة أصبح على مر الأيام فالشهور فالأعوام اسم «ملوخيه».. مرادفاً

تماماً للضبط وللربط كما قالها بعضمة لسانه المرحوم أخونا حمزه شحاته حينما كان سكرتيراً للمحكمة التجارية التي كان مقر مكتبها في شارع قابل تمهيداً لنظم حلمنتشية لم نعثر على أصلها حتى اليوم ـ وإن كنا لحسن الحظ قد احتفظنا بمعارضتها من قبلنا بعد تعارفنا بحمزه بعد رجوعه من بومباي وعليه طابع «الزينليه» بنطلون بفته طويل ـ وثوب بفته ـ برضو ـ قصير.. ودقله أقصر ـ أي «بالطو» بالاصطلاح البلدي للتسمية.. أو «باردسو» بالافرنسية ـ أو معطف بالفصحى الفصيح..

ومن نفسي.. قبل موالاة البحث.. عن شخصية رجل بريدنا الأول الشعبية أن أسجل هنا للتاريخ.. بعض ما ورد في تلك المعارضة في الآتي:

إذا مـــا جـــاءنـــا ـ يـــومـــاً

مـــلـــوخـــيـــا.. وفـــي يـــده: ـ

رســـائـــلـــنـــا!! فـــقـــل جـــانـــا

قـــدوم الـــســـعـــد.. فـــي ســـعـــده..

فـــقـــم.. يـــا واد ـ مـــنـــتـــصـــبـــاً

وحـــيـــي الـــمـــجـــد ـ فـــي مـــجـــده..

وقـــل لـــو: ـ هـــات يـــا عـــمـــي

بـــريـــداً طـــل مـــن بـــرده..

وبـــربـــشـــه بـــقـــر شـــيـــن..

لـــيـــدلـــق كـــل مـــا عـــنـــده!!

.. لماذا كان عم سليمان ـ ملوخيه ـ رجل البريد الأول في جده؟ وعشان إيش؟ ولم لم يخطئ يوماً في معرفة عنوان المرسل إليه ـ؟ ومتى.. وكيف صار أعمى؟ وكيف.. وهذا هو جوهر الموضوع.. تفوق على عماه.. فكان يقوم بتوزيع البريد.. يقوده صبي عادي.. وهو أعمى حتى لاقى ربه مؤدياً رسالته في إيصال الرسائل لأهلها وكأنه بصير يرى الناس والمواقع والمداخل والمخارج بطريقة فريدة فذة تجسد معنى الآية الكريمة. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦) أحسن تجسيد؟

السبب الأساسي.. وهو تاريخي محض.. أن مدينة جدة كانت على عهده ذات سور.. والسور محدد بطبيعته لمن هم داخله.. فهو كالقفص حاجز من فيه لا يزيدون ولا ينقصون ـ بمعدل توازن المواليد والوفيات ـ وبرغم مساوئ الأقفاص أو محامدها فإنها في الدرجة الأولى تعين الموجودين داخلها ـ وربما جاءت تسمية روسيا في يوم من الأيام «بالسور الحديدي»، تطبيقاً علمياً لهذا المفهوم.. هذه.. أو هذا واحد من الأسباب..

الشغلة اللي بعدها.. إن عم سليمان ملوخيا نشأ بصيراً فرأى وحدد معالم جده من أزقة.. لأسواق.. لشوارع لحواري. حفظها غيباً ـ فكان كما يقول رحمه الله.. أنا يا واد ما يغباني أي محل في جدة.. ولقد انطبعت اتوماتيكياً كل تلك الأماكن في مخيلته ـ حيث أخلص لها فأخلصت له ـ فهو يعرف أين تدب قدماه ـ دون أن تبصر قدميه عيناه ـ فهكذا نشأ ـ وكذلك ترعرع.. وتدرج بين شارع ـ وحارة ـ وزقاق!

طيب كدا؟ اللي بعدو من الأسباب ـ إن عم سليمان ـ ملوخيه كان

صاحب مزاج بريدي ـ أي أنه يفرح ويسر وينبسط إذا استلم صاحب الكتاب كتابه. . ويقول معاشروه إنه إذا تعذر عليه يوماً من الأيام معرفة عنوان المرسل إليه لا ينام ليلاً حتى يصبح وقد عرف عنوانه على طريقة «الكتاب يعرف من عنوانه. .»!!

بعدين ـ عاش سليمان ملوخيا شبابه ـ ثم عاش رجولته وكهولته وهو يؤمن إيماناً صادقاً بأن مهمة رجل البريد أن يكون أميناً في ربط المرسل بالمرسل إليه ـ وأشهد ـ ويشهد معاصروه بأنه مثل مبدأه هذا أحسن تمثيل ـ وعلى هذا النسق الفريد السوي ـ والبريدي ـ والمزاجي ـ سار الشاب سليمان ملوخيا ـ في مهمته الشاقة ـ وتفوق على سواه ـ بصيراً ثم أعمى ـ فوزع البريد دون أن يرفع صوت اعتراض أو احتجاج من أي مواطن بأن الرسالة التي جاءت باسمي لم استلمها ـ وذلك في تاريخ الاستلام والتسليم شيء ليس بالقليل!!

إخواني ـ أخواتي ـ أولاد عمي ـ بنات خالاتي ـ لقد عاش «ملوخيا». . ومات من غير أن يلجأ إلى العذر السائد اليوم «العنوان غير مفهوم. . أو إلى أن الشخص المرسل إليه «لم معلوم». . وبذلك وبفضل هذه العصامية البريدية كانت لنا مواصلات بريدية تفوق في دقتها ـ ودون مبالغة ـ أي جزء من أجزاء العالم ـ

أقول قولي هذا ـ والأسى يحز في نفسي ـ يحز في نفسي ـ لما وصلت إليه أجهزتنا البريدية في القرن الرابع عشر الهجري الموافق تقريباً للقرن العشرين الميلادي من أن «المذكور» غير معروف أو أن «مكانه ما شفناه» ـ أو أنه لعلمك ـ والعلم عند الله ـ نقل لمكان تاني ـ أو «والله ـ دورت عليه ـ ما قابلناه». . أو «هو هاد الرجال من البلد؟ بيقولوا. . انو

واحد من أهل بيروت والقناديل كثيرة ـ والعلم عند الله..!! .. !!».

وللمناسبة التاريخية.. أو غير التاريخية ـ فقد وجهت وحييت وأنا بكامل قواي العقلية إلى ابننا الدكتور محيي الدين كيال حين أسندوا إليه مهمة الأعمال البريدية «حلمنتيشية» استعرض فيها بدون قصد ما وصلت إليه بدون قصد اتصالاتنا البريدية ـ ورغم الصلة الوثيقة التي انفلتت أو سوف تنفلت غصباً عني بأخي معالي الأستاذ محمد عمر توفيق ـ بأخي في العلم وفي الله والفن ـ الأستاذ حسين منصوري فقد وجهت للابن الكيال «الحلمنتيشية» التي أخذت في يومها ما ينبغي لها من التقدير والاعتبار.

اللَّه اسأل للبريد.. فلاحاً

ولأبننا الكيال.. فيه.. نجاحا

وأقسم صادقاً بالله! أنني لا أريد تشهيراً أو تجريحاً بقدر ما اريد الانصاف «لملوخيا» ـ وكل ملوخية وأنتم بكامل الشهية.

بِيبـي زَيـنَـب..

.. لو قدر لأحد أبناء جدة من أبناء جيل اليوم السينمائي التلفزيوني الصاروخي الطائر.. والمولود على يد القابلة القانونية.. لو قدر لهذا الواحد.. فرضاً وتقديراً.. أن يكون واحداً من أبناء الجيل السابق كهول وشيوخ اليوم.. غلمان وشباب الأمس.. لشارك بالفعل أو بالمشاهدة في اللقطة الشعبية التالية:

المنظر: مدينة جدة عام ١٣٠٤ هجرية.

المكان: زقاق فرن الحنبولي.. على مقربة من مقلاة محمد علي «أورفلي» الواقعة على الحدود بين محلتي اليمن.. يمن دام.. والمظلوم.. سيل الدم ولا تندم.. وهي المقلاة التي يباع فيها اللوز والزرمباك والفصفص والحنبص.. وبقية المكسرات البلدي مما كنا نسميه «المجمع»!!

الوقت: ليلاً.. ما بين الساعة الثانية والنصف والثالثة عربي غروبي حسب التوقيت العام الرسمي والشعبي.. والشهر على أولو.. والدنيا ظلام.. ومين داري عنك يا اللي في الظلام.. تغمز..

الشخصيات: غلام في سن الحادية عشر.. وداعس في الثانية عشرة من عمره المديد إن شاء الله.. يحمل في يده اليمنى فانوساً هندياً نمرة

أربعة.. يهزهزه يميناً وشمالاً.. وإلى أعلى.. ثم إلى أسفل.. وذلك ليكشف بنوره الضئيل مواقع الأقدام لمن وراءه..

ووراءه: امرأة ملتفة كلها بالسواد داخل قنعة اسطمبولية جديدة!! تحمل في يدها بقشة فيها أدوات الصنعة.. ولا يظهر منها إلا عينان تبلبصان من الثقبين الصغيرين بما كان يسمى «البرقع».

حاشية من عندنا: والقنعة والبرقع هذان إنما كانا مثلاً ملفوفاً على التمسك والالتزام بحجاب الأمس الصفيق بالنسبة لحجاب اليوم ـ الكاب ـ الشفيف.. وذلك خاص طبعاً بنساء المدن.. مدن المملكة وحدها.. عكس أترابهن ساكنات القرى من البوادي.. من ذوات اللثام ليس إلا!!

أما الحوار الدائر بين الغلام حامل الفانوس الهندي نمرة أربعة.. وصاحبة القنعة والبرقع.. فيكفي أن نكتفي منه بالآتي:

أم القنعة والبرقع: وهو متى جاها الطلق؟

الغلام حامل الفانوس: وأنا إيش دراني كمان؟

أم القنعة والبرقع: امال ليش أرسلوك؟

الغلام حامل الفانوس: هم.. قالوا لي: روح جيب الداية.. وبس!!

وبلهجة بعض تقارير أهل الخبرة.. وبقليل من الذكاء المبكر.. فبناء على هذا الحوار الموجز.. وبالإضافة إلى المنظر السابق يتضح أن المهمة مهمة توليد.. وإن صاحبة القنعة والبراقع والبقشة هي «الداية» بلغة يوم أمس.. والقابلة بلغة هذا اليوم.. وعلى طريقة الأستاذ بدر: الواقع هادا صحيح.. ولكن من هي هذه الداية؟

إنها السيدة زينب الهندية.. وشهرتها بيبي زينب.. المولودة بمدينة جدة نفسها في عام الألف والمائتين..ويا إما تسعين وسبعة شهور.. أو تسعين إلا ثلاثة أشهر قمرية.. من أبوين هنديين بالنسبة لأرومتها الهندية العائدة لثالث جد تأقلم فأصبح جداوياً دون تثريب.. أو تقريق عليه.. كما فعل صاحب الدالية الشعبية والتي مطلعها:

قيل عني: بأن أصلي مصري   وبان الواد المسلوع هندي!!

شاهدنا: أنه كانت للسيدة زينب الهندية والشهيرة باسم «بيبي زينب» شهرتها الواسعة النطاق في نطاق بلدة جدة ـ فهي الداية الأولى التي تولت توليد معظم أولاد وبنات جدة.. بحيث لو أن بيبي زينب كانت تملك ختماً لا يزول أثره مع الأيام ومهرت به ظهور كل من قامت بتوليدهم بالأمس لرأيت هذا الختم ـ أو المهر ـ ظاهراً بالأصالة وبالوراثة على أقفاء الكهول والشيوخ..وكذلك أحفادهم النجباء!!

والحقيقة.. للتاريخ أن الشهرة التي كانت تتمتع بها بيبي زينب لم تأت إليها عبثاً أو فلتة ـ أو اعتباطاً ـ فإن الست زينب الهندية ـ أو بيبي زينب أول من وضع في نظام التوليد الشعبي وتوابعه الأسس التالية والسارية المفعول.. عملاً بها لوقت قريب:

أ ـ صياغة وتأكيد جملة.. يا الله يستي نفيسه بتنفيسه.. وقت الطلق.

ب ـ سحب الطفل من رأسه إن كان وديعاً مسالماً.. أو من رجليه إن كان مشاغباً.. أو من لسانه إذا كان سيكون صحفياً ـ أو ناقداً أديباً.. أو شاعراً شعبياً ـ في مستقبل أيامه..

ج ـ قطع صرة المولود حالاً.. واستئصال الخلاص فوراً.. ثم عصر ماء الليمون في عينيه.. ليرى حقيقة الدنيا على حقيقتها ـ دون أن يقرف منها.

و ـ تنظيم حفلة الرب يا رحماني تحت رئاستها.

هـ ـ ترتيب نظام ليلة التسمية ـ بمعرفتها..

و ـ استلام أجرها الأساسي نقداً. مع أخذ ٢٥٪ مما يرمى على المولود في مهده ليلة التسمية من أخراص وبناجر وحلقان ـ أو غوازي وألواح ما شاء الله ـ أو الجنيهات الذهبية عثمانية أو إنجليزية!!

وأخذ ٥٠٪ من بقش هدايا الرب يا رحماني المحتوية على الشريك ـ والحلاوة!! وأظننا لسنا في حاجة لشرح حفلات الرب رحماني أولاً ثم التسمية ـ في السابع.. فهي معروفة للجميع.. وإلى هنا ـ وحتى صباح الغد موعد مطالعتكم إن شاء الله لهذا الركن المنزوي هنا بسبب تكتيك صحفي جفري حديث.. نتوقف الآن عن متابعة سيرة السيدة زينب الهندية.. والشهيرة باسم «بيبي زينب» مرددين وراءها هذا المقطع التالي من منظومة ـ يا رب ـ يا رحماني:

يـــا رب.. يـــا رحـــمـــانـــي
يـــا خـــالـــق الإنـــســـان..

بـــارك لـــنـــا فـــي «هـــانـــي»
واحـــفـــظ رقـــيـــه.. وســـانـــي

وارزقـــهـــمـــا.. بـــالـــتـــانـــي
مـــن غـــيـــر.. كـــانـــي ومـــانـــي..

وبلاشي.. يا سامعاني
يا خارقه أوداني..
من وصفة النصراني..
دي الخلفه.. دي الفيراني
دي شغله.. دي رباني..
قولوا.. معايا.. صناني..
وكمان.. صناني.. بناني
وكمان صناني.. بناني!!

* * *

يا رب.. يابريه
خلى لنا.. حسنيه..
كتر لستي صفيه
في الخلفه.. والدريه..
محلي بيوتنا.. هنيه
ببزوره.. رايحه.. وجيه
وبلاش شويه.. شويه..
دي شغله مي عربيه
دي موضه.. دي عصريه..
أنا نفسي في المقليه
من عند عمي عطيه..
قولوا.. ورايا.. تاني..

يــــا رب.. يــــا رحــــمــــانــــي..

يــــا رب.. يــــا بــــريــــه!!

وفي صباح هذا اليوم.. وعلى حين غرة.. ودون سابق إنذار.. وزي ما باقول لك كدا.. دق على جرس التلفون.. وصحاني من سابع نومه.. الشاب المهذب والذي امتنع عن ذكر اسمه الزوجي أو الثلاثي.. طالباً مني في أدب وحياء بالغين أن أتوسع معه.. وأتبحبح في شرح حفلات الرب يا رحماني.. وكذلك في وصف ولائم التسمية المقرر موعدها بعد صلاة العشاء من يوم سابع المولود.. بمناسبة ما قرأه.. على حد زعمه.. عن الحفلة والوليمة في شعبية أمس عن السيدة.. الداية.. زينب الهندية.. أو بيبي زينب!!

وقد أحلته.. لعدم توفر المراجع حينذاك.. ولتنمية مواهبه على يديه بنفسه.. ودون واسطة.. على أبحاثنا الشعبية المنشورة عن الرحماني والتسمية في بعض جرائدنا المحلية.. ونخص منها جريدتي البلاد وعكاظ دون تمييز إحداهما عن الأخرى في الدفع أو المماطلة.. أو مراجعته لدار الإذاعة لاستعمارة أشرطة برنامج الحلوة والمرة.. من غير ترتيب الحلقات.

ونكتفي من هذه المحادثة التلفونية بهذا القدر الضئيل.. لنعود إلى حديث الست زينب الهندية.. والشهيرة باسم «بيبي زينب» فنقول.. يا رعاك الله.. ووقاك عثرات الزمان.. وتقلب الصروف والأحوال.. إنه لا داعي إطلاقاً للإشارة أو التلميح إلى كمية الثروة المعدنية والورقية.. أي الذهبية والفضية حينذاك.. التي كوّنتها بعرق جبينها.. وبخفة يدها في التوليد.. الست زينب.. أو بيبي زينب.. من توليد نساء جدة المعروفات

والمجهولات طيلة نصف وربع قرن.. بحساب القرون الأولى.. أي بما يعادل خمسة وسبعين عاماً بالتمام والكمال.. فقد بلغت تلك الثروة بمختلف العملات رقماً يصعب تقديره.. حيث اقتضى منسوبها العالي أن تشتري بالفائض منها عتبة «أي منزلاً كبيراً».. في محلة الشام ـ يا مال الشام يا مالي ـ وعزلة «أي بيتاً صغيراً».. في محلة المظلوم.. وبات مظلوم.. ولا تبات ظالم.. أروق لك.. وأحسن!!

وبعد.. يا سيدي الفاضل ـ وما فاضل إلا أنا وأنت ـ فلعلّ من مكملات البحث في سيرة «بيبي زينب» التعرض بخطف ولمح سريعين إلى هيئتها وملامحها العامة لإثبات هويتها.. وفي هذا المجال الواسع تقول مشاهداتها ومعاشراتها من النساء.. وكذلك من بشرتهم بالمواليد الذكور وجهاً لوجه وقبضت منهم حق البشارة من الرجال يداً بيد.. إنها كانت ربعة القامة مع ميل ملحوظ إلى الطول.. نحيفة القوام مع امتلاء بارز في بعض الأجزاء العلوية والخلفية منه.. سمراء اللون إلا حين تغضب من قلة الأجر فإن لون بشرتها يميل إلى السواد حينذاك.. ذات أصابع نحيلة وطويلة لا تظهر بها الأظافر إما لقصها يومياً حرصاً على عدم خدش المواليد.. أو لانغرازها بطبيعتها داخل اللحم.. صاحبة كدش منبوش على الدوام مما يدل على كثرة الانشغال والاهتمام بالعمل وحده.. لها صوت رفيع مصرصع.. وهو على طريقة الجو المتقلب في هذه الأيام.. يكون حنوناً في حالة سهولة الولادة.. كما يكون مفزعاً في حالة تعسرها.. وذلك لإرهاب النفساء من جهة للاجتهاد في توالي الطلق وسرعته.. ومن جهة ثانية لإسكات صراخ المواليد عند تشريفهم هذه الدنيا الكثيرة الضوضاء.. وهذا بالضبط ما يفسر لنا الظاهرة البارزة في أن

أغلب أصوات الجدادوة طروش البحر تميل إلى الخفوت والخفض.. عكس جيرانهم الأدنين حلوس الجبال!!

أما عن هوايات «ببيي زينب» فتقول بشكتها النسائية إن هوايتها كانت مقتصرة على لعبة «البجيس» بتشديد الجيم المكسورة الخاطر.. وهي لعبة حريمية مشهورة حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري بمدن الحجاز.. والساحلية منها بوجه خاص.. كما أنها تهوى مضغ «التامبول» باستمرار ولكن مع المحافظة على البصق في طاسة نحاسية تضعها دائماً على يمينها.. أو تعلقها في رقبتها حين يحمي وطيس معركة الشغل.. وهي شغوفة بأكلات السمك بأنواعه.. وإن كانت تفضل السيجان من الصغار.. والناجل من الكبار منه.. ولم يكن يضايقها شيء في الوجود إلا شعرات تنبت من حين لآخر في موضع الشنب.. للرجال.. ومقر العثنون.. كما يسميه أبو مدين إذا أراد استعراض عضلاته اللغوية بين العمير وباخشوين.. ولكنها كانت تحاربه بالنتف الدائم.. على طريقة: اللي دقنو أطول من دقنك.. أستعين عليه بالنتف!!

وبيبي زينب.. كما عاصرناها في أواخر أيام حياتها.. قليلة الاهتمام بالرحلات.. أو الخروج من جدة.. اللّهم إلا للحج إذا اطمأنت إلى كساد موسم النفساء في الموسم. وإلا للعمرة إذا كانت هناك حالة ولادة في رباط البهرة بمكة المكرمة.. ومع ذلك فقد جازفت بعد أن جاوزت السبعين من عمرها.. وبعد أن قامت بتزويج ابنها محمد.. واطمأنت إلى رصيدها المحفوظ بصندوقها السيسم.. بالقيام برحلة إلى الطائف مارة بالكر وبكرا وما بعدهما على ظهور الحمير المسماة «يرويكب» وذلك عقب الحج بصحبة ابنها وزوجته وبرفقة كاتب هذه السطور.. فتى يقرأ

لها سيرة عنترة بن شداد باستمرار ودون توقف حتى حين السير على الأقدام في بعض الأماكن من جبل كرا. . والمحظور فيها ركوب .

هذا. . ومن ذكريات هذه الرحلة الطائفية. . وحين نزول هذه الجماعة الصغيرة في دار الشيخ محمد أمين السليماني الواقعة بجوار قهوة القزاز ـ وقد أصبح المذكور عمدة الشرقية بالطائف فيما بعد ـ أن المذكور هذا قد واظب على تقديم طبق الفاصوليا الخضراء. فطوراً في الصباح. . وغداء في الظهر. . وعشاء بعد صلاة العشاء. . وذلك لمدة يومين اثنين على التوالي. . زي ما باقول لك كدا!! وأنه لم ينقطع عن تقديم هذه الوجبة إلا حين برزت بيبي زينب من غرفة النساء سافرة الوجه. . مدلدلة اللسان. . والشرر ينطلق من عينيها صائحة في وجهي:

يولد!! أحمد!! هو الراجل المجنون دا ما عندو إلا الفاصوليه الخضرة؟ وإلا إيه؟ ثم انكفأت حسيرة دامعة العينين. . هامسة في مناجاة حارة: نفسي آكل الحوت. . حتى لو كان حوت ناشف. . وكان ما كان!!

تلكم هي الست زينب الهندية. . الداية الجداوية الكبيرة. . والشهيرة باسم «بيبي زينب». . بكل ما لها وما عليها!! أما سبب شهرتها «بيبي زينب» فيعود إلى سبب عجيب وغريب. إذ إن والدها حين ولادتها على يد جدتها الست زينب سماها «حليمة» الهندية. . ولكن حليمة هذه لم تكد تبلغ السابعة عشرة من عمرها وقبل أن تتزوج الحج عبد الغفور المزين. . اشترطت قبل عقد نكاحها شرطين أولهما: أن تسمى «زينب الهندية» بدلاً من حليمة. . وذلك تقديراً وتخليداً لاسم جدتها التي توفيت قبل «الملكة» بشهرين. . وثانيهما: أن تترك لها الحرية الكاملة في مزاولة مهنتها «كداية» ناشئة دون قيد أو شرط. . وكأنها بما فعلت كانت تتخيل حصولها على شهرتها الواسعة العظيمة. . قبل الأوان. .

ولا أحتاج أن أقول أن الوالد قد رضخ لشرطيها.. ومنذ ذلك اليوم أطلق عليها اسم زينب الهندية بدلاً من حليمة اسمها الأصلي.. وتدريجياً تصدرت كلمة «بيبي» بكسر الباءين ومط الباءين قبل الاسم، فأصبحت تعرف باسم «بيبي زينب» ومعروف أن لفظة «بيبي» في السنسكريتيه تقابل عندنا كلمة «استيته» أيام زمان. وابله الآن!!

هذا.. وبمناسبة ذكرى الفقيدة المتوفية عن عمر يناهز المائة عام وعام بعد أن باعت العزلتين.. وبقية المصاغ.. فقد قام رفيق رحلتها الطائفية.. والمولود على يديها.. برثائها مجاناً بقصيدة طويلة عريضة.. نكتفي منها اليوم بالمقطوعة التالية:

أنت.. يا دايتي العزيزة.. أولى
برثائي.. من أي شخص ثاني
كيف أنسى.. يا بيبي زينب كفاً
سحبتني.. لدنيتي.. من لساني
قطعت صرتي.. وسابت ببطني
وصلة في الغليظ من مصراني
فإذا بي ذو الفتق في الصرا.. يبدو
وسط كرشي.. كحبة الرمان
وإذا بي ضراب بق.. به الشعر
مع النشر سائل الريقان
والفصوليا الخضراء باتت عشائي
وغدائي.. وفطرتي في الأدان

كيف أنسى.. يا بيبي زينب.. ستاً
رقصتني في الرب.. يا رحمان
أنا أنساك؟ هي دي تيجي يعني؟
وسط دنيا.. ضاقت.. كما الكشتبان

الخِرِنْتَا . .

إذا كنت من روّاد شارع الحمراء في بيروت. . أو الشانزليزيه في باريس. . أو بيكاديللي استريت أو اسكوير في لندن. . أو حيث يوجد اليهود في أي حي من أحياء واشنطون ونيويورك. . وكل مدن أوروبا. . وآسيا. . أو من غير تطويل عليك وعلينا. . إذا كنت في أي شارع منزوٍ أو مزدحم بالمارة وبالناس من كل المدن في كل صقع من أصقاع الدنيا. . فإنك حتماً ستجد هذا الصنف من الغلمان. . أو من الشباب. . «المستنبت» على حد تعبيرنا البلدي. . أو المتخنث بالفصحى. . أو الهيبز بالعالمية. . أو الخنفوسي بالتعبير اللبناني الحديث!!

ويعود السبب حالياً وأخيراً في انتشار هذا الوباء الآدمي. . وبهذه الكثرة الزائدة إلى موجة الجنس الداعرة والعارمة. . وإلى تهاون المبالغين من الحكومات والحاكمين في الحرية. . الحرية الفوضوية والتي أوجدت أخيراً جداً. . طبقة ـ أو طبعة حديثة من هذا الصنف الذي قرأنا عنه منذ أيام ـ حيث قام العراة البلبوصون زي ما خلقهم ربهم بغزو الأسواق والمعارض والأماكن العامة. . كمتحررين جدد من آدميتهم القديمة!!

وهذا الوباء الآدمي. . أو هذا الصنف الجديد الذي يمثل آخر صرخة جنسية عارية قد غطى على بقية الأصناف التقليدية نقروءه على الأصح. . إن

للعراة أنديتهم الخاصة في بعض أنحاء العالم وإن كلاً منهم.. مع ذلك للإنصاف.. يعتبر عرياناً يقابل عرياناً مثله.. والعريان في القافلة .. أمين!!

وعلى كل حال.. فإن بحثنا الشعبي هذا مخصص لغير ما ذكر.. ولكن الاستطراد اقتضانا هذه الإشارة المقرفة إلى من أعادوا لنا سيرة إنسان الغابة.. أو الإنسان الأول الذي لم يبلغ مع ذلك هذا الحد من الاستهتار.. فقد احتفظ بورقة التين.. الورقة التي أصبحت مصدر استرزاق وإثارة في المسارح العالمية باسم «الاستربتيز» والتي ربما سقطت هي أيضاً في بعض برامج.. أو نمر تلك المسارح.. وعلى قول المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب.. يا خفي الألطاف.. نجنا مما نخاف.

ويقيناً يا ولدي.. على قول صاحبنا إياه.. فإن وراء هذا التهتك المتنوع أياً كان شكله.. وأيا كانت موديلاته الجديدة.. ووراءه الأصابع الصهيونية اليهودية التي تحرك هذه القطعان الآدمية كما تحرك أصابع المختصين.. بمسارح العرائس ـ دمى العرائس ـ وذلك تطبيقاً وتنفيذاً لما نصت عليه قواعد حكماء صهيون كقوانين ومقررات لا بد من تطبيقها عالمياً.. بنداً وراء بند!!

وقبل أن نواصل تفلية هذه النقطة.. وقبل أن نعود لنتابع بحثنا البلدي.. وسرد شخصيتنا الشعبية به ـ أرى أن نقف للاستراحة ـ ولتفريغ سمنا.. عند هذا المقطع الذي سجله لنا ولكم أخونا.. وأخوكم في الله بمناسبة الحديث العرياني.. عن هذا الصنف الجديد من التعساء المنحلين والعرايا الزلط.. يغشون الشوارع والأسواق:

يا من خرجت علينا اليوم.. بلبوصا

فكنت عند جميع الناس.. خلبوصا

من كل مفعوصة في الكون قد ركضت
تطارد اليوم في الأسواق مفعوصا
ماذا تركت.. كإنسان نكرمه
لدى البهيمة.. مرذولاً ومنقوصا
أما سمعت بأمثال لنا سلفت
ونحن أصحابها: ذكراً.. ومنصوصا
لبس لنا البوصة الجرداء عارية
تبقى عروصاً!! بشعر لاح مقصوصا
يا واد!! يا بنت!! يا من حق مثلكمو
الضرب بالنعل.. بالكرباج معقوصا
اقلب عن العين وجهاً منك صار قفا
لا فرق بينهما.. زلطاً كما البوصا
اخص عليك!!
واتفوه كمان!!
كدا؟؟
أزريت بالأدميِّ الذي:
قد عاش مجعوصا

.. هذا وبالنسبة للخرنتات الجدد.. فإنه يقينا أيضاً يا ولدي أنه لم يبق في العالم بعد هذا الشيء شيء.. إلا.. والعياذ بالله.. ممارسة الجنس علناً.. أو كشكرا خبر ـ تحت أنف وعين وأذن القانون في الشوارع والأسواق والمعارض والأماكن العامة وكل مكان.. بعد السماح بممارسته في الأزقة المنزوية ـ وداخل السيارات أو تحتها أو في حفلات

الجنس الخاصة للفرجة عليه بفلوس ـ أو في الحدائق العامة المماثلة كحديقة هايدبارك بلندن ـ وغابة بولونيا في باريس ـ وسواهما للفرجة عليه ـ بدون فلوس!!

ولقد أتى ذلك كله أو بعضه على البقية الباقية من تاريخ الآدمية المتقشمطة باللباس لستر العورة وللتزين. بحيث أصبح العصر اليوم معكوساً . . فإذا كان المتبع بالأمس أن يذهب المتحضرون في العالمين الأوروبي والأميركي لرؤية المتخلف العاري في أفريقيا وآسيا للفرجة عليه يسعى كما ولدته أمه . . فقد أصبح وسيصبح المتبع اليوم أن يذهب المتخلفون بأفريقيا وبآسيا ليتفرجوا مجاناً على هؤلاء المتحضرين . . البلابيص . . العريانين.

ومع ترديدنا معكم جميعاً . . حسبنا الله ونعم الوكيل . . وكذلك اللَّهم آمنا في أوطاننا. ويا خفي الألطاف منذ اليوم وحتى ما شاء الله ـ أو إلى أن يعود هؤلاء المنحلون الملحوسون إلى صوابهم ـ أو تعيده إليهم حكوماتهم بقوانين جديدة صارمة . . فإننا سنعود حالاً إلى الوراء . . للخرنتا . . موضوعنا الأساسي ـ إلى سيرته الشعبية . . مع قليل من طراطيش الكلام المتصل بالتاريخ والأدب والاجتماع.

وفي علمنا التاريخي ـ والاجتماعي ـ والأدبي ـ فإنه لم يخل أي عصر من العصور من هذا الصنف . . النص نص . . من الناس . . على اختلاف في البيئة ـ وفي الزي . . وفي الشكل العام ـ حيث كان هذا الطراز متوفراً ومعروفاً من قديم الزمان وسالف العصر والأوان سواء لدى الإقريق . . أو الرومان . . أو بقية الامبراطوريات الزائلة في كل الأصقاع . . ومن كل الأجناس . .

ونحن نتذكر ـ مع الأسف الشديد ـ ما سبق أن أمر به الخليفة واليه في المدينة لإحصاء المخنثين بها ونفيهم.. وحيث لعب الخيال دوره فيما ترتب على اخصائهم بدل إحصائهم.. كما أن من معلوماتنا البيولوجية ـ أي العضوية ـ أن الأصل في وجود هذا الصنف في المجتمعات هو وجوده الطبيعي في أول الأمر خلقة ربه باسم «الخنثى».. البحت أو الخنثى المشكل.. يجمع بين عضوي الذكورة والأنوثة معاً.. ويتمتع بحق الجنسين من ناحية النظرة إليه.. وللشرع الشريف في الخنثى أحكامه المعروفة وليس هذا الآن من اختصاصنا.. أو من اختصاص ركننا هذا بطبيعة الحال..

والأسئلة الأتوماتيكية المترتبة على التحاميل الموسيقية السالفة هي: هل توجد لدينا شخصيات شعبية من هذا الطراز؟؟

والأجوبة الفورية لهذه الأسئلة.. ودون رتوش.. نعم.. أيوه.. طبعاً.. ما في شك!! ولكن متى كان ذلك؟ وهل انقرض الخرنتا.. أم لا يزال باقياً سواء في الأقبية.. أو على السطح؟

وبدون محاباة.. ومن غير مداهنة.. وبلا رياء فإن أسلوب حكومتنا الحاسم الرادع أقصى دون هوادة أو تريث أو تهاون هذا الصنف الممرقع من الناس.. وحمى المجتمع السعودي من وجوده كجماعة ـ أو كطبقة متميزة تتمتع بوجودها مثل الطبقات أو الطبقة الموجودة في العالم والمتميزة بزيها وشكلها وسلوكها العام بما في ذلك الأقطار العربية للأسف الشديد ـ وعلى نحو من الأنحاء..

أما منذ أكثر من نصف قرن.. وعلى عهد حداثتنا.. فقد كان المثال على الصنف الأصلي ماركة «خلقة ربه» بيولوجياً موجوداً ومعروفاً باسم

«بنات الشيخ». . كما كانت للنوع «المستنبت» من الأولاد والشبان عينات معروضة ومعروفة ـ والمستنبت معناها كما لا أحتاج أن أفسر الولد اللي عامل زي البنت. . ولأجل التشهير بالمستبنتين من الشبان والغلمان كان الشعبيون لدينا يطلقون على الواحد منهم اسم. . الخرنتا. . وهي لخبطة ظريفة محبوبة ومعقولة لكلمة أو اسم الخنتى. . ويعتبر تحريف هذه اللفظة وشقلبتها في مقام التجريح والتشنيع على هذا الصنف. . عنواناً على يقظة ورجولة روادنا الشعبيون وعلى رأسهم المطاليق والمشاكلة من أصحاب الحزم المشدودة على الوسط. . والعمم المطنقرة على الرؤوس والتي بلغ من اعتزازهم بها أن أطلقوا المثل المشهور عليها. . فقالوا. .

قطع الروص. . ولا هد العمايم!!

. . وبعد ذلك فإذا نحن استثنينا في جدة أمثال الواد. . هويها. . بتشديد الواو المكسورة وكذلك الواد سلمان أبو داك الكلام. . وسكاكر. . والمشخلع. . وسواهم من المولعين بمحاكاة البنات والستات في المشية ـ والهرجة ـ والكحلة ـ والحركات ـ ومضغ اللبانة ـ فإنه لن يبقى لدينا كمثال كامل الأوصاف على هذه الأصناف إلا ـ الخرنتا ـ الشخصية الشعبية التي عاشت قبل نصف قرن من الزمان وطغت شهرتها على من عداها. . من الخرنتات.

لقد كانت عائلة الخرنتا هذا ـ والخرنتا بالطبع اسم الشهرة له ـ تسكن في محلة الشام من جهة سوق الندا الشمالية الغربية بقرب الخرابة المشهورة بوجود الغسالين من بنات الشيخ فيها. . وكان اسمه الأصلي ـ كما ذكر لي ذلك الفتيني ـ يحيي ولا داعي للرسم الثلاثي. . وهي عائلة مستورة يشتغل ربها مساعداً لمن كان يقوم بخياطة قنع الستات

الأسطمبوللي والجاوي ـ ويسمونه «الحضا» بتشديد الضاد المفتوحة.. والحضا هو الرجل الذي يتولى لقف ودرز وتهيئة القنع حسب المقاسات وكان يستعمل الإبرة والخيط والنسج البسيط لها في دكانه وبواسطة بعض السيدات اللواتي يعملن في بيوتهن بالأجرة لحسابه.

وقد نشأ الخرنتا نشأة طبيعية تدل على نوعيته الذكورية فعلاً ومظهراً وأداء في جميع التصرفات والحركات.. ولكن بعد أن فقشه في رأسه أحد زملائه خافت عليه أمه من الاختلاط بالأولاد في البرحة والأزقة واللعب معهم وما يترتب على ذلك من احتمال وتعرضه لفقشة أخرى أو لما هو أكبر من ذلك.. فمنعته بعد الرجوع من الكتاب أو من دكان «الحضا» حيث يعمل أبوه.. منعته من الخروج من البيت ليبقى ملازماً له مع أخواته البنات.. فنشأ عن بقائه الدائم في البيت وعن عدم سماعه أصوات الأولاد الذكور. وعن اختلاطه المستمر بأخواته البنات ـ وعن حضوره المستمر لجلسة الستات العائلية من الزائرات لوالدته ـ أو من كن يستقبلنها في دورهن هي وبناتها ـ وولدها الخرنتا ـ حين تقوم برد الزيارة لهن ـ نشأ عن كل ذلك أن «أستبنت» الولد بحكم عدم اختلاطه بالأولاد زملائه وأنداده ـ واختلاطه غير المنقطع بأخواته البنات ورفيقاتهن وبوفيان والدته من الستات!!

بهذا الاحتجاز البيتي.. وبسبب حادثة معينة كما يؤكد المطلعون على ما وراء البرفانات اليومية استحال يحي أو الخرنتا دفعة واحدة إلى ذلك الصنف ال «بين.. بين» في زيه.. وفي شكله.. وفي كلامه.. وفي حركاته.. وإن لم يكن متهماً في سلوكه الفعلي أو اليومي بالشيء القبيح.. وعلى ذلك.. وكموعظة على الماشي.. فلتتق الله أمهات اليوم

في أولادهن الذكور.. ولتعط لهم الفرصة للاجتماع الدائم وللاحتكاك بالأولاد زملائهم مهما كان الأمر.. وحتى لا يترتب عن منعهم لمخالطة صنفهم أن ينتقل أولادهم من صنف ـ إلى صنف!!

وعندما كبر الشاب يحيى ـ أو الخرنتا ـ كان أول مظهر في زيه.. عدا استنباته في كل شيء ـ إنه لم يستعمل الحزام قط.. وكان شد الحزام في وسط الشاب أو الرجل مظهراً بارزاً على رجولة الرجل الشعبي الأصيل.. حيث يعتبر كل من لم يلبس الحزام في ذلك الوقت من أولاد «الخرقة» وأولاد الخرقة هم المدللون المنتسبون لطبقة الأفندية التي تتميز بأصلها التركي والأرناؤوطي وتتمتع بالعطف العثمنللي.. وبرعاية الحاكمين من الولاة والمتنفذين في الدوائر الرسمية ابتداء من الباشا والبيك والأفندي والجندرمة الرسميين وانتهاء بالمتتركين من أهل البلد حيث لا يبقى بعد ذلك إلا افراد الشعب البلديين ـ أو الباش بظك.. أصحاب العمائم على الرؤوس ـ والأحزمة في الأوساط الجسدية ـ لا الطبقية!!

وبموجب ذلك فقد كان الحزام هو العلامة الفارقة بين الرجل والرجل ـ وولد الخرقة ـ والحزام كما هو معروف.. ومعظمه من نوع البقش الكشميري.. مخصص لربطه في الوسط ومؤلف من عدة طيات.. وينتهي في دورانه حول الوسط من الجهة الأمامية بعقدة أو عقدتين ونصف العقدة على هيئة «الفيونكا» برأس البنات الصغيرات أو على علب الحلاوة المودرن ـ وكذلك علب المداليات الصغيرة. كما أن الحزام بأنواعه هو العلاج الواقي.. والشافي بإذن الله من مرض الدسك.. أو الغضروف الشائع!!

وقبل أن أدخل في تصنيف الحزام وأهميته المحلية والعالمية.. وقبل

متابعة سيرة يحيى أو الخرنتا.. لا بد أن استشهد على ما ذكرت ببعض الأبيات التي راودتني عن نفسها.. الآن:

رج.. الحزام بوسطه.. ومشى به
يختال.. كالطاووس بين رفاقه
رجل.. إذا شافته.. في حاراتها
أولاد خرقتنا.. سعت لعناقه
لتقول: عاشت للمعلم عنتر
عبلاته.. بزقاقنا.. وزقاقه
إن الحزام بوسطنا.. متخلخلاً
للدسك.. للغضروف..
بعض وثاقه!!

هذا.. وتفيد بعض الأوساط العلمية المجربة والدارسة لمحاسن الأزياء ومنافعها أن الحزام في الأصل إنما وجد لغير الزينة وحدها.. فهو يشد وسط الإنسان بحيث يقتضي التحزم به نصب القامة بدل هزهزتها وخلخلتها من النص.. كما أنه يمنع فتق السرة عند حمل أي شيء ثقيل.. وكذلك يحول دون اندلاق الكرش وفرفطته!

والحزام في نشوئه.. وارتقائه وتطوره على مدى التاريخ على عدة أشكال وأنماط.. فهناك مثلاً.. حزام الكرادلة والأساقفة.. ورجال الدين بأجناسهم يتمنطقون به فوق القباء.. أي القنباز.. أو الشاية.. أو الفراجية لانسجامها.. وعدم تعرضها لمفعول الهواء الشديد يتلاعب بها كما يشاء له تياره.. وهناك حزام النفساء تشد به بطنها عقب الولادة.. والحزام المصنوع من الشيلان الخفيفة.. والمصنوع من البقش الكشميري.. ولا

يدخل في أنواع الأحزمة هذه حزام العفةِ الصليبي المشهور فإن له موضعاً آخر.. وسبباً مختلفاً كما هو معلوم.

ولقد تطور الحزام من القماش إلى الجلد.. ومن أنواعه الجلدية.. الكمر.. وله جيوب خاصة بوضع النقود وسواها فيه.. كما أن من أنواعه.. السير.. وهو بعكس الكمر رفيع جداً ويختص بالبنطلونات.. وقد يربط به الحجاج الإزار لحفظه من الانفلات أو السقوط..

كما أن من متفرعات الحزام في بلادنا.. النسعة.. وهي خاصة بالبدو والأعراب بصورة عامة في البوادي.. وتتكون النسعة غالباً من عدة حبال جلدية تكون وحدة وسطية ويربطها رأس واحد.. وتتيح بوضعها هذا إمكانية عمل عب من الثوب لحفظ بعض الحاجات الشخصية الخفيفة شأنها في ذلك شأن الحزام في تيسيره وجود الأعباب.

ولا مؤاخذة في هذا الاستطراد الطويل عن الحزام.. فإن عذرنا في ذلك أن كل ما سلف عن الحزام إنما ننصب على مسامع يحيى.. أو الخرنتا لترغيبه في لم وسطه الذي كان بهزهزته وترقيص جسده سبباً في إثارة مشاهديه.. وبالأخص جلساء المراكيز بالقهاوي المجاورة لبيتهم في سوق الندا بالذات.. وفي حارة الشام كلها بوجه عام.

ويقول الفتيني أن حشداً من سكان المحلة أصروا ذات مرة على والد الخرنتا أن يلزمه إلزاماً فعلياً.. خشية من الفتنة.. وخوفاً من تقليد أولادهم لولده بالتقيد بالآتي:

أ ـ أولاً: وقبل كل شيء استعمال الخرنتا للحزام. ولبسه حين خروجه إلى الشارع.

ب ـ عدم قيامه بمضغ اللبانة وطرطقتها بين أسنانه.. بصوت مسموع.

ج ـ امتناعه عن رج الكحلة بعينيه.. وامتداد خطوطها من الرموش.. ومجرى الدمع من العين إلى طرف الأصداغ.

و ـ عدم استعماله إطلاقاً للشباشب النسائية.. أو للتاسومة.. أو للصندل.. أو للجزمة ذات الكعب العالي.. ومبادرته حالاً بلبس المداس سواء كان من نوع «أبو خرزين» أو المدني ذي الأصبع الواحد.. أو الواحدة.. والذي يقال إنه منسوب لذي الأصابع العدواني.

هـ ـ في حال تعذر استعماله لما سلف.

من أنواع المدس.. أو المداعس المنوه عنها أعلاه يحسن أن يمشي حافياً مثل بقية أولادنا.. غير ملق بالاً إلى المثل القائل.. إن شفت الحافي.. قول يا كافي!!

و ـ منع الولد يحيى.. أو الخرنتا.. من تزيين راحتيه.. وكفي رجليه بالحناء.. وكذلك عدم استعمال العفص لأظافر يديه.. فقد سمعنا من الخوجاية مرة الخواجة إيكيليا أن الإفرنجيات يسمون هذا النوع المناكير وأنه أحمر اللون فاقع الحمرة لديهم.

ز ـ قيامه برج العمة فوق الكوفية الجاوية المنشَّاة.. وله الحرية المطلقة في أن يجعل لها عدبتين.. أو عدبة واحدة.. مع إخراج طنف بارز لها من إحدى الجهتين.. دليلاً على المشكلة وذلك بدلاً من وضعه الشال الخفيف الشبيه بالمدورة على رأسه ولفها حول رقبته. واتخاذ جزء منها ساتراً للأطراف التحتية من وجهه فتبدو وكأنها لثام.

ح ـ أن يجعل كلامه حين يتكلم نبراً وبصوت عال وخشن.. وأن يستعمل ألفاظ وجمل وتعابير الرجال.. وبدلاً من افتعال الرقة في صوته.. وتنعيم الكلام.. ومواظبته على الألفاظ النسائية.. مثل وه

يخويا.. ويقطعني.. واخص عليك يا أنت!!

ولا نرى داعياً لاستقصاء جميع ما ورد في مطالب سكان المحلة من الخرنتا قيامه به.. ولا ذكر بقية البنود التي لا يحسن ذكرها.. كما أننا لا حاجة بنا إلى القول برفض هذه المطالب من والد الخرنتا باسم ابنه.. وكذلك تأييد شيخ حارة الشام المرحوم الشيخ باخريبة الكبير.. والد العمدة الشيخ محمد باخريبة الخراط.. والذي تولى مشيخة الحارة أو العمودية ـ بعد انتقال الشيخ سالم حماد إلى رحمة الله ـ تأييداً مطلقاً للوالد والولد في وجاهة رفضهما لتلك المطالب. وذلك أولاً للحفاظ على الحرية الشخصية ما دامت لا تسبب ضرراً ملحوظاً للغير.. أو تعدياً مباشراً عليه.. وثانياً مراعاة لخاطر بنات الشيخ وتثبيتاً لحقوقهم.. أو لحقوقهن.. وحتى لا تسري المطالبة بأي شيء من ذلك عليهم ـ أو عليهن.. في المستقبل القريب أو البعيد.

وبمناسبة ذكر.. بنات الشيخ.. فقد ذكرني الأستاذ أبو فوزي عبد المجيد شبكشي رئيس تحرير جريدة البلاد ببنت الشيخ الذي كان يسكن بجوار بيت نصيف.. ويتصف بأكثر مما يتصف به الواد يحيى الشهير باسم الخرنتا.. حيث كان يقوم بالرقص في حفلات الزار.. التي أنهت وجودها حكومتنا الرشيدة بحزم.. وبقوة.

كما كان صورة طبق الأصل من آية بنت عادية في معظم الأشياء. وقد أيد أبا فوزي فيما ذكر أخونا الشيخ عمر عبد ربه وسرد لي طرفاً من قصص بنت الشيخ هذا.. أو هذه.. ولطول البحث في سيرة هذا الصنف من الناس فربما أفردنا له سيرة خاصة.. مكتفين الآن بمتابعة سيرة يحيى.. الشهير بالخرنتا..

وفي ذات صباح ـ أو في ذات مساء.. فقد اختلف الرواة في تحديد الوقت ولم يتفقوا عليه.. قامت والدة الشب يحيى الشهير باسم «الخرنتا» واسمها الست «مشتهى» بضم الميم وسكون الشين وفتح الهاء المقصورة الألف بعدها.. قامت بمفاتحة والده العم شاكر والشهير في الحارة باسم «كرنكش» في أمر تزويج ابنهما يحيى المعروف باسم الخرنتا من حفصة أحدث بنات الجيران اللواتي يترددن على بيت العم كرنكش وحرمه الست مشتهى.. والتي تعرف كثيراً من عادات وطبائع ابنهما المحفوظ يحيى.. أي الخرنتا.. بحكم مخالطتها السابقة.. قبل أن تحتجب.. والدائمة له قد دار الحوار بين والدة الخرنتا ووالده طبقاً لأصح الأقوال.. وحسب الرواية التي اصطفيتها بعد أن استقيتها من فم المرحوم العم الشيخ محمد باخريبه الخراط وعمدة محلة الشام نقلاً عن والده.

الست مشتهى: ـ أنا أشوف.. يهوه.. إننا خلاص لازم نجوز ولدنا يحيى..

العم كرنكش: ـ هو أنت كلمتيه في الموضوع.. والا لسا؟

الست مشتهى: أقول لك الحق أنا أتكلمت معاه.. بس يعيني الولد ما جبتلو سيرة الجواز.. إلا وراحت دمعتو تنزل على خدو.. ومن ساعتها هو مش راضي يحط شيء من الأكل في جوفو.. بتفتكر يعني دا من الفرحة.. «ألا يعني من شيء تاني»؟..

كرنكش: آه!! آه!! إيش راح أقولك!! دا من شيء تاني!! خليها على الله وبس!!

مشتهى: تكون البنت مهي عاجباه؟.. اكمنها زي اختو يعني من طول ما عاشوا سوا مع بعض؟

كرنكش: ـ على كل حال هي البنت مسترجلة كتير . . وعلى شان كدا الناس بيسموها حفصة ولد . .

مشتهى مقاطعة: ـ على كل حال . . مهو برضو وزي منت عارف عامل زي البنات والناس بيسموه الخرنتا . . فدي تسد دي!!

كرنكش: مدام جبتيها بنفسك ـ وقلتيها بعضمة لسانك . . فأنا ما عندي مانع . . بس يكون الولد يبقى يتجوز ـ وما عندو أي مانع!!

مشتهى: اتوكلنا على الله. وإن شاء الله ما يسير إلا الخير!!

ويتابع المرحوم الشيخ محمد باخريبه روايته . . فيقول ومن تلك الليلة ابتدأت الخطاريف بعد أن تمت الخطوبة . . ثم الملكة . . بس أنا لاحظت أن الواد الخرنتا من ساعتها وهو آخذ في النازل . . وباين عليه الزعل والهم . . وعشان ما أطول عليه . .بعدما سارت الدخلة ليلة ـ لا ـ لا ـ والله بليلتين ولا أصحى لك إلا الزاعق اللي جاني في القهوة وقال لي الحق يا الشيخ الواد يحيى ـ الخرنتا يعني . . طاح من السطوح . . ونزل ما فعينو . . ولا قطره . . الله يرحمو . . مسكين!! ويعقب المرحوم الشيخ باخريبة أخيراً بقوله . . على كل حال الكلام اللي انقال كتير . . وربك سمي الستار . . وعلمي وسلامتك . . وقد أجبته طبعاً وبدون تردد بقولي . . ومين قال . . سالم.

وهكذا . . في ساعات وبين معالم الفرح والزينة . . أو بعد ليلة الدخلة انقلب العرس إلى مأتم . . وانتهت بذلك حياة شخصية شعبية تمتعت في جده بقسط كبير من الشهرة . . وبقيت أعواماً على المسرح الاجتماعي تمثل دور . . الخرنتا . . بكل معالمه وخصائصه . .

ذلكم هو الواد . . ثم الشاب يحيى المشهور باسم . . الخرنتا . .

بجميع حيثياته.. أما سبب التسمية فقد سبق إيضاحه بتفصيل.. ومنذ اشتهار المذكور باسمه هذا.. وحتى ما بعد وفاته أصبحت لفظة «الخرنتا» ولذلك وهي كلمة كما لا أحتاج أن أقول يتبرر منها كل الأولاد والشباب حتى أولئك الذين تتوفر فيهم بعض الجوانب من ملامح المرحوم يحيى المشهور باسم «الخرنتا» ولذلك حين عثرت على المقطوعة الشعرية التالية لدى الراوية لسيرة عنتر وأبي زيد الهلالي وببيرس في المقهى المجاور لعائلة الخرنتا.. وهو عم سليمان الأخضري استحلفني بالله ألا أنسبها إليه.. إلا بعد وفاته.. حيث قد أخذ الله وداعته من سنوات قلائل فإنني لا أجد ما يمنع من نشرها الآت يقول الأخضري:

حرام علي عيني عزيز منامها
وإن كنت في القهوا.. إلى الصبح. اسهر
أحكي الحكاوي للعيال بحقها
وأشهر أبطال الحكايات.. عنتر
فقد سقط الواد الخرنتا مدردباً
من السطح والأقوال تروى.. وتكتر
فيا ليتهم ما زوجوه بحفصة
وخلوه.. زي ما كان.. واللّه يستر
فيا طالما أبصرته.. وهو داخل
إلى البيت.. أو كما من البيت.. يندر
وكحلته ملو العيون.. ويده
تزهر بالحناء.. واللون أحمر..

وهيئته مثل البنات بكل ما
يلوح على كل البنات.. ويظهر!!
فقل لبنات الشيخ: مات شبيهكم
وقل للذي قللي: بماذا تفكر؟
لقد قفل الباب الخرنتا بموته
فأصبح هذا الصنف في الناس يندر..
إلى حيث القت.. لا.. تغشته رمحة
.. كما قال عنه.. للتوّاب كشمبر!!

أَبو سَدَّاح . .

من الشخصيات العالمية غير العربية المشاهير الذين أصبح لقب الواحد منهم أو اسم شهرته يغني عن الاسم واللقب العائليين. . فإذا جاءت مثلاً سيرة واحد راجل عسكري طموح جعل أوروبا تركع له مثل نابليون أو هتلر فلا داعي إطلاقاً لذكر اسم أو لقب أبويه. . ومثلهما تماماً إذا قلت في الموسيقى بيتهوفن وشوبان. . وفي المسخرة الكازانوفيا، «دون جوان» وفي علم الجنس «فرويد» وفي أصل الأنواع «داروين» الذي رد أصله للقرد. . وأرضى بقردك لايجيك أقرد منو. . وفي التمثيل الصامت «شابلن» وفي الأدب الإنجليزي «شكسبير» أو «شيك زبير» كما نسبه العرب لأنفسهم من القل. ربنا لا يقلها من أيد مسلم. . يا رب!!

أما في الأوساط الشعبية بالمنطقة العربية. . ففي مصر مثلاً إذا أتت سيرة الفول والطعمية ـ أي المقلية ـ فقل «التابعي» واسكت. . وإذا جاء ذكر هز الوسط فلتكتف بكلمة «كاريوكا». . وفي المواويل البلدي «طلب» بكسر الطاء واللام وسكون الباء. . وفي المونولوجات «شكوكو» وفي الفشر «أبو لمعة الأصلي».

أما في لبنان. فإذا جاء ذكر الحلويات ـ أو الحلو ـ فتكفي كلمة «الصمدي» وإن جاءت سيرة الفكاهة اللي زي بعضها فما في إلا «حنكش»

فهو مثل «مروش» للفروج المشوي.. ومطعم اسطمبول للقطع والأوصال.. وللاتيكيت الاجتماعي كلمات: ولو.. وكرمالك.. وتتدبر.. وهات عاد يا ليرة قفا ليرة.. الين يدوّخ عدوك من الصخ..

هذا كله أو بعضه يطابق تماماً ما هو حاصل عندنا فأنت على المستوى الشعري والأدبي والصحفي كمان يمكنك أن تقول.. العواد ـ شحاته ـ الفقي ـ السرحان.. وفي اللغة والتاريخ: الجاسر. عبد القدوس. الزيدان.. العطار.. وفي الأركان الصحفية: أبو ظلال.. وأبو معالم وأبو استراحة اليوم.. واليوم ولا كل يوم يا مشمش.. وأبو جداول.. وأبو لقاء.. وأبو لمسات.. وأبو «على الماشي» لوحدو.. وذلك كما في الأحياء المائية ابتداءً من أبو جلمبو وانتهاء بأبو مقص.. أما في الكلام اليومي اللي لا يودي ولا يجيب فحسبك الأسماء المعروفة اللي تجيب البلا ولا توديه!!

أما على المستوى الشعبي.. ففي جدة ومن حوالي قرن من الزمان فإن كلمة «أبو عوف» للمطبق الفرني.. وأبو القعور للمقلية ـ والكردوس والجاوي ليليش يليش.. وعم غلوم للسلف.. زي البنك.. وستي «وهبابه» لنتف شعر الحاجبين والتعقيص وعمل الكوافير النسائي القديم بأنواعه.. و «دحدحيه» للسويك والحنا والترمس.. وكباية و «عسله» للفول النابت.. والفنانات السيدات «ساهينا» «ورشوده» و «شنوانية» للتزحيف ونصة العروصة.. بطابق وكسرة.. و «فلوسه» بضم اللام المشددة لمواراة الموتى في قبورهم دون مد يده إلى خلف أكفانهم!!

من هذه النماذج.. وعلى هذا المقاس العالمي والعربي والمحلي بشقيه الأدبي والشعبي يمكننا الآن وبسهولة أن نتطرق دون احم أو دستور

إلى سيرة شخصية شعبية شهيرة وعظيمة في تاريخ مدينة جدة ـ ولدت ولاقت ربها ولم يسقط منها أو من يدها الموس.. إنها دون فخر من أهلها.. أو فشر منا.. شخصية «أبو سداح» بتشديد الدال المفتوحة ضماناً لعدم الغلط والتحريف.. وعلى قول حبيبنا وصاحبنا إياه.. نعم.. نعم.. فقد كان اسم أبو سداح في جدة مجرداً عن أية إضافة اسمية أو لقبية أو عائلية عليه كافياً لأن يتحسس الأطفال الذكور مواضع الطهور والتبول خوفاً من مجيء الدور عليها.. وأن يضع كل من الكبار كذلك صباح الجمعة يده على رأسه ليعرف هل استحق كدشه الحلق بالموس قلطاً أم يؤخره للجمعة الجيه؟

ولقد تفرد أبو سداح بشهرة طويلة عريضة لم تتيسر ولن تتيسر لغيره من كل من حمل الموس بيمناه حتى الآن.. وكان ذلك التفرد مقصوراً وممدوداً على الرجال والشباب الملتزمين جميعاً بحلاقة الرأس ـ أي شعره جميعه.. بالموس.. وعلى الأطفال.. وهنا محل شهرته الحقيقية.. لتخصصه بتشريطهم بالموس.. وبالقيام بعمليات الطهور الختان ـ لهم.. ولهذا ندر بين كهول وشيوخ اليوم من نجا بكدشه.. أو بغلفته منه.. فقد سن أبو سداح موسه.. وشهره كالسيف فلم يغمده طيلة حياته.. أي طيلة قرن إلا ربع القرن.. وهذا ليس بالقليل في عدد القرون المستوية أو المعكوفة.

ويضاف إلى ذلك أن «أبو سداح» كان اسماً كافياً لإلقاء الرعب التربوي التهذيبي.. فقد بلغت شهرته من الاستفاضة والخطورة حداً جعل الأمهات في البيوت يخوفن أولادهم الصغار أيام زمان بقولهن «ولد.. شوف إن ما تسكت.. أو إذا ما تجلس عاقل رايحه ازهم لك أبو سداح»

فيسكت الولد خائفاً من التطهير أو التشريط ـ أي أن أبو سداح في بيوتنا أصبح كذلك لإرهاب الأولاد رابع أربعة هم: البعبع. والغول.. والهمية.. قومي سوي لوزي أوليه!!

وبعد.. يا إخواني.. فإن الطهور أو الختان يستحق قبل القطع بما له وما عليه أن نتعرض دون مؤاخذة أو حياء لموضع ولموضوع مجاله بقليل من التفسيرات اللغويةُ إزالة للشك الشائع الذي ترتب عليه استبعاد أو إخراج كلمتي الغلفة والقلفة من العربي الفصيح.. وذلك إرضاء لصاحب سيرتنا الشعبية اليوم رجل الطهور الأول في جدة.. أبو.. سداح.. وتسجيلاً لحادثته اللغوية الشهيرة:

إذ يقال.. والعهدة في هذا على الشيخ مبارك إمام زاوية «غلوم» المقابلة لبيت رضا والمجاورة للنورية القديمة من جهتها الجنوبية.. يقال: إن أحد المتحذلقين المتقعرين من دارسي النحو والصرف قد أزعج أبو سداح.. وهو الذي يزعج الكبار والصغار.. إزعاجاً لا حد له حين صاح به بعد قيامه بعملية الطهارة لابنه.. قائلاً له «ترى.. ماذا فعلت بقلفة ابني.. يا رجل؟» فتبرسم أبو سداح صامتاً.. لأنه.. وهو.. هو قاطع القلفات يومياً.. لم يدر ولم يعرف أن للغلفة بالغين اسماً آخر هو القلفة بالقاف.. فأدار وجهه لهذا المتحذلق المتنحون.. وولى مسرعاً حتى أنه حسب الرواية نسي أن يأخذ أجره وذهب يناهج من توه إلى إمام الزاوية الشيخ مبارك الذي هدأه.. وابتسم بوجهه.. ثم فرد القاموس أمامه.. وأشار له بيديه.. فبرك أبو سداح ـ وكان جسيماً كما سيأتي ـ كالجمل أمام الشيخ الذي قرأ له الفقرات الآتية:

أ ـ القلفة ـ يبو سداح.. بالقاف آتية من فعل قلف الشجرة أي نزع

عنها قشرها.. وقلف الظفر أي اقتلعه من أصله. وقلف القلفة يعني قطعها.

ب ـ كما تقول قلف قلفاً الصبي: لم يختتن ـ فهو أقلف.. وعلى ذلك فالقلفة: جلدة عضو التناسل.

ج ـ أما الغلفة ـ بالغين ـ فهي من فعل غلف الشيء بفتح اللام غطاه وغشاه.. وبتشديد اللام غلف الشيء جعله في غلاف.. ومعناها القلفة وهي الجليدة التي يقطعها الخاتن..

د ـ وبناء عليه ـ يبو سداح ـ فتكون القلفة بالقاف هي الغلفة بالغين ـ ويكون الأقلف هو.. الأغلف.. و.. و..

وهنا زعق أبو سداح.. وهب في وجه الشيخ مبارك صائحاً.. بس ـ بس ـ كفاية.. كفاية.. هو مين اللي قال لك كمان إني ما أعرف معنى الغلفة؟ تحب تشوف؟..

وهنا لم يتمالك أبو سداح نفسه من الاندفاع.. وإشهار موسه.. والاتجاه به صوب الشيخ مبارك الذي كان يحتضن ابنه المتعلق برقبته.. والذي صرخ في وجه أبو سداح.. لا.. لا.. محلك!! حاسب! ترى الولد قيدو.. مطهر.. مطهر.. وأنت.. أنت اللي طهرتو بيدك.. هو أنت؟ أنت يبو ـ سداح؟

.. وكما أن عملية الطهور ـ أي الختان ـ عملية شرعية يحث عليها الدين.. وتقتضيها النظافة.. والنظافة من الإيمان.. فإن عملية إشهارها كانت ـ على أيامنا ـ تقتضي الاستعداد العائلي لها.. وذلك بإقامة حفل خاص «بالطهار» ودعوة الأهل والأقارب والمعارف والجيران إليه.. وكانت معظم الاستعدادات تنحصر في الآتي:

أولاً ـ القيام بترويش أو بتدليك الولد وتنظيف جسده جيداً.. وخصوصاً موضع القطع.

ثانياً ـ تفصيل ثوب بفتة أو صليطي جديد للولد لارتدائه دون سروال.. ومن دون الخوف من صراخ وهيلولة زملائه عليه بقولهم «الدلال» ـ أو: دلال السروال.. جاكم.. جاكم.

ثالثاً ـ إحضار كرسي مخصوص لجلوس الولد عليه.. مع وضع مخدتين.. أو مسندين وراء ظهره.. ليكون المحفوظ مدلدل الساقين والرجلين.. متطرفاً.. جاهزاً للقطع.

رابعاً: إحاطة المحفوظ بثلاثة رجال أو أربعة من أقاربه لمسكه.. والتشبث به.. إبطالاً لأية حركة هرب أو عصعصة تبدر منه عندما يباشر أبو سداح عمله.

خامساً ـ مشاغلة الولد ممن حوله بالجمل المتوالية: طل فوق ـ شوف السقف ـ شايف؟ شايف الطير الأخضر؟ الله ـ الله. شوف.. ويعتبر مجرد رفع رأسي الولد للسقف إيذاناً مباشراً لقيام أبو سداح بقطع الغلفة.

سادساً ـ تحضير قطعة شاش بيضاء نظيفة.. وكذلك حفنة من الرماد المنقى الذي لا تخالطه بقايا الفحم.. مع قليل من الملح المطحون.. وذلك لوضع الغلفة بدمها وصرها ثم تعليقها برقبة الولد المطهر لتكون شاهداً يتباهى به كما يتباهى اليوم بعض غلمان الجيل الحاضر وشبابه بسلاسل الرقبة.

سابعاً ـ اختيار بعض السيدات المجيدات للغطرفة ـ واستعدادهن بإرسال الغطاريف المدوية المتتالية بمجرد تلقي الإشارة بانتهاء أبو سداح

من شغله ـ إشعاراً عائلياً للأهل وللجيران وللحارة كلها بانتهاء المرام على خير ما يرام..

ثامناً ـ قيام أفراد العائلة والأقارب والجيران رجالاً فنساء بإعطاء المحفوظ المطهر من الفكة ـ الهلل والقروش.. ما تجود به نفس وقدرة كل منهم.. لقيام الولد بوضعها في كيس النقود المصنوع خصيصاً له ولها.. وذلك بقصد إلهائه عما قطع منه.

.. وقد تتغالى بعض العائلات فيقوم رجالها بإحضار بغلة أو حصان أو رهوان لإركاب الولد المطهر يحف به أترابه والأعزاء من أهله.. والتجول بالموكب في الأزقة والشوارع والبرحات.. مثل حفلة الاحتفاء بالصرافة.. وهناك ـ عدا ما ذكرنا ـ بعض الزيادات والحواشي والهوامش الإضافية مما تحول شواغل العصر الحاضر دون استحباب إيرادها والاستزادة منها.. علماً قبل وبعد ذلك بأن عادات الطهور بكافة وسائل إشهارها كانت متوارثة جيلاً بعد جيل. بحيث لا يمكن إجراء عملية الطهور «سكيتي» وذلك لئلا يتهم الولد من زملائه بأنه أغلف أو اقلف.

وكما تقول الصحافة اليوم.. وانطلاقاً من عملية «الطهار» ومتعلقاتها فقد كانت لشخصية المطهراتي قيمتها الكبيرة في المجتمع.. ومن هنا كان الجهل بأبو سداح غير وارد إطلاقاً.. يضاف إلى أسباب ترسيخ شهرة أبو سداح في جدة أنه كان حلاقاً. أي مزيناً.. كما تقول التسمية الأتيكيتية البلدية الحلوة.. المفروغ منه بديهياً وبدهياً كما يقول الأستاذ إياه.. إن اسم «مزين» آت من التزيين.. ويطلق لغوياً على الحلاق والحجام.. فحلق الرأس وتنظيفه وتنعيمه قلطاً بالموسى.. قديماً.. وتسوية شعره وقصه بالمكنة نمرة ثلاثة أو اثنين أو «زيرو» في بعض المواقع حديثاً

وحالياً إنما هو لتشذيب وتهذيب وتزيين خلقة الإنسان.. والوجه والرأس عنوانها البارز..

ولعلّ من المناسب إيراده هنا أن بعض علية الناس من زبائن أبو سداح كانوا لا يخجلون من رفع الثياب وتقديم أباطهم في دكانه لإزالة شعر الباط حلقاً بالموس.. وكان.. حتى لا اتهم بالاختلاق.. على رأس المشجعين لهذه العادة الباطية الوجيه المرحوم الحاج الماس.. ولا داعي لذكر اللقب فما ذكر يكفي.. ولقد رآه كاتب هذه السطور مع رفيق صباه وحياته المرحوم الشيخ محمد سعيد العتيبي. وكانا آنذاك غلامين يتجولان في السوق الكبير خاصة للاطمئنان على انتهاء البدوية من بيع الدجاجة والديك اللذين سلماهما لها لضمها لبضاعتها المعروضة أمام مسجد عكاش من ناحيته الشمالية الشرقية وبيعها لحسابهما.. بقروش معدودات.

كما أن من المناسب كذلك الإشارة إلى أن عملية الحلاقة على عهد عميد الصنعة أبو سداح كانت عملية يقوم الموس فيها بالدور الأكبر.. فلقد كان عيباً.. بل ومحرماً اجتماعياً على الناس في المدن طبعاً.. تربية شعر الرأس.. وكذلك إبقاؤه لأكثر من أسبوعين ـ أي جمعتين.. تمهيداً لحلقه زلطاً قلطاً بالموس. حتى ترى الرأس «تصاصي» أي تلمع.. وحتى تصلح أن تكون فور الانتهاء من حلقها مرآة لمن يريد أن يرى فيها وجهه.. ولهذا أطلق على الرأس المحلوقة «القنجة».. كما خصص لها وبعد حلاقتها.. على سبيل المزاح.. كف يسمى «كف الحلاقة».. وهذا الكف الدعابي الأخوي عبارة عن تسقيطة حنونة على الرأس ببطن الراحة ولا يباح إلا للأصدقاء الخبثاء.. وأظن أني لست في حاجة للتبحر في شرح «التسقيط» الشعبي بأنواعه وبمدلولاته.. فهو معروف ومشهور إلى

الحد الذي بلغت فيه كلمة «التسقيط» في بعض معانيها التدليل على بلاهة وغفلة من يستحقها ممن يعمل عملاً فاشلاً.. أو من يقول كلمة غبية.. أو من تجرد عن الفطنة.. وعلى ذلك فإننا نرجح أن ذلك رمز إلى أنه مراد العقل.. أو أجروده..

ولما ذكر في هذا الباب ـ باب التسقيط.. فإنا نحب أن نؤكد تهذيب أبو سداح.. وتعاليه عن المصطلحات السخيفة.. فإنه لم يعرف عنه طيلة اشتغاله بالصنعة أنه سقط في أي يوم من الأيام لأي زبون مهما كان شأنه.. مستهجناً دائماً العادة الدارجة والمتداولة بين الناس.. في بشكاتهم ـ وقيلاتهم ـ وسرحاتهم البحرية.. وذلك بقول بعضهم لبعض ـ حين يرتكب أحدهم عملاً أو قولاً يدل على بلاهة.. أو غباوة ـ أو فشر.. «ها؟! إيش تشوف؟ تسقط لو أنت.. وإلا أقوم أنا.. أسقط لو؟».

.. هذا.. ولما كان حلق شعر الرأس كله.. بل وتنعيمه وعدم بقاء أي أثر للشعر أو الزغب عليه أو حوله هو الأصل.. وهو دليل الذكورة والرجولة والشعبية الأصيلة فقد كان كل من يخرج على العرف من الأولاد ويربيه أو يحتفظ بجزء منه في واجهة الرأس مما كان يسمى «شوشة» متهماً في شعبيته وأنه أرستقراطي فيطلق عليه اسم «أبو شوشة» وربما ورد كبحث اجتماعي لقب بعض العائلات المدعوة بهذا اللقب إلى هذه التسمية القديمة.

وقد أطلق بعد التطور على من يحتفظ بشعر رأسه كاملاً.. مكتفياً بقصه من أطرافه وتزيينه اسم أبو «توليت» كما أطلق على شعر الرأس الكامل نفسه اسم «التوليت» أعزكم الله. علماً بأن التوليت هو الشكل

الحاضر والسائد اليوم لكل من حمل راساً على كتفيه ذا شعر كامل.. وأعتقد أنه لم يبق إلا العدد القليل جداً جداً من المحافظين لليوم على الحلق القلط بالموس.. وهم بقية الناس البلدي جداً جداً ـ برضو ـ كأمثال الواد زنقر ـ واليابا الكركشان.

مما تقدم ذكره بسرعة ومما سيأتي على مهل. ندرك مدى قيمة وأهمية وسيطرة وشهرة «أبو سداح» وكما يسمى في الأدب من جمع بين الشعر والنثر بذي الصناعتين فكذلك كان أبو سداح صاحب صنعتين هما الطهور أي الختان ـ والتزيين ـ أي حلق شعر الرؤوس والأباط فهو مطهر ومزين بل إن أبو سداح ضرب عرض الحائط بالمثل القائل «صاحب صنعتين كذاب»، حين أضاف صنعة التشريط بالموس في الخدين للتمشيل أو لفقع الحومة أو الدملة المستوية الناشفة بالموس.

ولقد أعجبني في هذا الباب.. وفي عدم سماح أبو سداح لأي من الناس بأن يستخف بالصنعة أو يستهين بأصحاب الأمواس الحادة قول بعض الظرفاء من أهالي النزلة اليمانية.. وكان يتعاطى الشعر بإيعاز من والد الأستاذ عبد الحميد مشخص خفية عن والديه وأهله.. مع إرسال بعض ضفائره على الكتفين كعادة الأعراب حينذاك ـ ومكايدة للحضر الذين لا يرأفون بشعر رؤوسهم ونثره في الهواء عندما يلعبون «الرفيحة» وهذا القول دون تحريف منا هو:

أتيت أبا سداح.. بالشعر مازحاً
لأمدحه مدح المحبين للفن ـ
فكتَّفني بالحبل ـ حتى كأنني
لديه طلي ـ جاء للذبح.. يستنّي

وسن لي الموس الطويل.. مقشطاً
على الشعر.. بعد الشعر.. في الرأس ـ في الذقن
وشرطني.. في الخد.. بالموس مرسلاً
دمائي على الخدين ـ من دونما دهن
وقال لي اذهب يا فتى ـ متعلماً
بان لنا قنا ـ يفوق على القن
فأقسمت.. أني لن أحوم بعدها ـ
بدرب أبي سداح ـ
حرصاً على أمني!

وفعلاً.. هكذا كان أبو سداح في غيرته على التقاليد.. وحرصه على سمعة بلدته جدة.. وعدم السماح لغلمان الضواحي والبوادي بالاستخفاف بأهل الحواضر.. وكانت طريقته التقليدية في تأديب من ترمي به المقادير بين يديه ـ الموس ـ ولا شيء غير الموس.

وبعد ـ فقد كان أبو سداح يرحمه الله ـ صاحب دكان قريب من سوق الخاسكية.. على خطوات من بيت.. وقد تمسك منذ زواجه وإنجابه بالقاعدة الذهبية المتمثلة في مثلنا الشعبي الدارج.. صنعة أبوك لا يغلبوك. لهذا فقد لقن ابناءه الصنعة منذ أن نبت الشعر برؤوسهم فحلقه لهم بالموس.

كما كان من أشد المتعصبين لعدم تفتيح عيون الأبناء على ما يضرهم ـ فهو لا يسمح للصبي أن يتجاوز في تعليمه جزأي عم وتبارك ولا للبنت أن تتعدى شغل المنسج.. لزركشة المدورة أو تفصيل المحرمة.. أو تطريز عصابة الرأس المعروفة باسم ـ الشنبر.. وعلى من أراد معرفة

المدورة والمحرمة والشنبر أن يعود إلى سته ـ أي جدته.. إذا كانت تعيش.. أو إلى أمه المسنة للوصف وللشرح ـ غير الحضرمي ـ شرح الله صدور الجميع للمعارف الشعبية.

ذلكم ـ باختصار مفيد أو غير مفيد ـ هو أبو سداح.. لقباً.. وحيثية وشهرة مستفيضة دامت قرابة قرن كامل.. أما أبو سداح في هيئته الجسدية بكامل أوصافها كما ورد في موشح كامل الأوصاف فقد كان طبقاً للمواصفات الاتية.

أ ـ من جهة لون البشرة.. فهو أسمر بلفظة مجازية مهذبة ـ أي أنه بالبلدي الفصيح ـ أسود غطيس.

ب ـ البنية.. كان صاحب بسطة في الجسم فهو في مقاس الجمل بمقاس بلدنا أو الفيل بمقاس البلاد التي يركب أهلوها الأفيال ـ مشقور العينين باستمرار خشية من أن تفوته شعرة في رأس الزبون من الكبار أو طرف جلدة من قلفة الأولاد الصغار.

ج ـ سيكولوجياً.. رجل خالٍ من العقد النفسية.. واللي في قلبو على لسانو.

حتى أن أصحاب الأسرار من زبائنه كانوا يتحاشون التفوه بها في حضرته رغم قيامه أثناء الحلاقة بجرجرة ألسنتهم كعادة الحلاقين من بعيد ـ لبعيد.

و ـ موديلياً.. حافظ على ارتداء الثوب دون حزام.. وذلك لبروز كرشه بروزاً غير عادي.. ولرغبته في أن يرى كرشه أمامه متقدماً الصفوف لدى الزحام إشهاراً لوجوده وكان يلازم ارتداء المداس أبو صباع يقلعه حين مباشرته الطهور في البيوت ـ ويستبدله بالقبقاب في الدكان استعداداً

للوضوء وهو أول من أقدم على كشف رأسه أو قنجته الملساء حرصاً على الاعتزاز بحرفته.. وقد اغتاظ كثيراً في آخر أيام حياته من صديقنا الأخ عمر هزازي حين أقدم كأول شاب جداوي على تحدي العرف وعلى السير برأسه ذي التوليت المكشوف دون كوفية أو عمامة أو غترة وكان أبو سداح ذا أسنان ناصعة البياض حرص لأجلها على حمل المسواك ـ وتعليقه بأذنه كما كان المحاسبون والكتّاب يحملون مراسمهم وأقلامهم وقت اشتداد العمل ـ في أذانهم.

وكفاصل موسيقي ـ قبل أن تقدم الحلقة الأخيرة من سيرة أبو سداح يحسن أن نستمع إلى هذا المقطع الذي أملاه علينا بعض معارفه القدماء:

أبـــا ســـداح ـ يـــا غـــالـــي ـ
ســنــنــت الــمــوس ـ فــي الــحــال ـ
لــقــطــع جــلــيــدة الــغــلــفــه ـ
بــلا جــهــد ـ بــلا كــلــفــه ـ
وحــلــق الــبــاط ـ والــراس ـ
مــن الــطــائــع ـ لــلــعــاصــي ـ
فــلا زلــنــا ـ لــدى الأفــراح ـ
نــنــاديــكــم أبــا ســداحْ ـ
ولا زلــتــم.. لــدى جــده ـ
لــفــك الــضــيــق ـ والــشِّــدَّه ـ
بــلا شــرط.. ولا مُــدَّه!!

.. أما هواياته ـ فقد كان أبو سداح مغرماً بالسمك.. محباً لأكل اللحوم بأنواعها وبالوانها.. شغوفاً بالضاني شغفه بالبقري وبالجملي ـ

يموت في أكل الدجاج والبط والقطا في موسمه.. كما كان شديد العناية بتربية التيوس الصغيرة للتمتع بأكل التيس الذي لم يبلغ الحلم قبل أن يبعبع أو يلتحي.. أما مشوياً في الفرن.. أو معمولاً سلاتاً على الحجر.. وبجانبه ما تيسر على قوله ـ وحيث إنه لم يك محبذاً لأكل العيش الحاف فهو متيم بالغموس. أي غموس ـ وكان ينصح أهله بذلك حتى لو كان الغموس عسلاً وطحينة.

أما بالنسبة للمُواصلات لا يطيق ركوب الحمير ـ مع أنها وسيلة المواصلات الأولى في عهده.. وربما عاد السبب في ذلك إلى أنها لا تطيق حمله إذ لا يوجد حمار يستطيع السير به دون انقطاع أنفاسه من الخطوات الأولى كما أنه لا يميل إلى ركوب البغلة أو الرهوان أو الأكديش.. كلا بعقلو يعيش ـ بل إنه كان يكره كل حيوان جسيم بما في ذلك الجمل.. أو جمال الراك على الأخص كراهيته للدكتور أو الطبيب ـ أي من كان يسميه الحكيم.. لمزاحمته له في الصنعة على آخر أيامه.. وبأسلوب الطهور. أي الختان ـ الحديث!

وبالنسبة لمفاخر أبو سداح.. فقد كان المرحوم يفاخر دائماً بأنه رغم بدانته الفائقة فإنه يستطيع مسابقة أي عداء يريد مسابقته في المشي أو في الجري على حد سواء.. ويرد السبب في احتفاظه بقوته البدنية الهائلة إلى ولعه بالمشي إلى البيوت للطهور على رجليه. وبالسير حافياً أحياناً على رأس المحتفلين بالولد المطهر.. علماً بأنه لم يكن هناك داعٍ لهذه القوة الهرقلية التي يعتز بها.. فإن بنية زبائنه للحلاقة لا تبررها. كما أن أجسام الأولاد الذين يقوم بتطهيرهم محدودة بل هم كالعصافير.. فقد كان الطهور بالمناسبة ـ للأولاد في سن تتراوح غالباً بين الثالثة والرابعة. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا القليل.

وبالمناسبة ـ للمرة الثانية ـ فقد اتصل بي تلفونياً أثناء كتابتي حلقات ابو سداح الأستاذ محمد سعيد متبولي ـ أو مات ـ بولي كما يداعبه بعض خلصائه.. وذلك لتعليقه على حلقات بيبي زينب وعم سديق وإظهار إعجابه بالشعبيات.. وقد تطرق الحديث إلى أبو سداح وسواه فاجأني المذكور بمعلومات قيمة في تاريخنا الشعبي لا تتسنى في الحقيقة لمثل من هو في مثل سنه ـ كما يقول ـ وحتى لا أدخل معه في التسنين وتوابعه فقد قلت له صادقاً إن لبعض الأشخاص رغم سنهم لاقطة قوية.. فهم منذ أن يحبو الواحد منهم تاتي ـ تاتي ـ خطى العتبة ـ وبعد أن يقفوا على أقدامهم يعون تماماً كل ما يمر بهم أو يسمعونه.. وتقوم لاقطتهم القوية هذه بتسجيل وتحميض كل الأشرطة المرئية والمسموعة وحفظها في خزانة الذاكرة لحين اللازم.

وقبل أن ندخل في حديث الأستاذ المتبولي الخاص بالمناسبة لا بد أن ننوّه أنه عضو بالمجلس البلدي لمدينة جدة.. بل هو أقدم عضو عامل بالمجلس منذ أيام المرحومين الشيخ محمد صالح أبو زنادة ويوسف نصيف رغم أن سنه فوق سن أكبر أبنائهما بقليل.. وهو أنشط من عرفت في معرفة وملاحقة حاجيات البلد العامة.. لولا!! لولا أنه لم ينفذ حتى الآن اقتراحي القديم الخاص بترقيم الشوارع والبيوت عددياً وأبجدياً وحسبما ورد بإحدى قناديلي السابقة على أنه رئيس اللجنة الخاصة بمشروع الترقيم. حتى الآن.

شاهدنا من المناسبة.. أن الأستاذ المتبولي قال لي إن الشخص الوحيد من أبناء جدة الذكور طبعاً الذي جرت عملية طهوره وهو مراهق هو ابن القاضي.. أي المرحوم الشيخ عبد الوهاب قاضي الذي كان يقف

على رأس أمنا حواء.. متنقلاً في مقبرتها بخرقته البيضاء من الرأس إلى الصرة الكائنة تحت القبة ـ ثم إلى قدميها. مستنزلاً عليها الدعوات قابضاً لحسابها ما تيسر من الفكة والريالات. حافظاً خريطة جسدها المسجى في مقبرتها ابتداء من الرأس الذي كان كائناً أمام الباب الجنوبي لمدخل المقبرة وانتهاء بقدميها اللذين كانا يقعان أمام الباب الشمالي. وكان ذلك كما لا أحتاج أن أقول. قبل صدور أمر الحكومة بهدم القبة.. والقضاء على البدع والشرك بإزالة البناء الخرافي الطويل جداً والمحدد لقامة أم الجميع. وبالأخص من أبنائها الزوّار القدماء لها من الحجاج ـ ومن الخواجات بما فيهم بحارة البواخر أيضاً فهي أُم الكل ـ على طريقة ست الكل.. وربما تعرضت لسيرتها الشعبية في يوم ما..

وتفصيل أمر ابن القاضي كما رواه الأستاذ المتبولي.. أن المرحوم الشيخ عبد الوهاب كان شديد التدليل لنجله فكلما هم بتطهيره بكى الولد ـ أو النجل ـ وبكى معه من بالدار فيضطر الوالد بدافع من الحنية والدلع إلى تأجيل الطهور حتى إذا كثرت معايرة أولاد الحارة للولد الشحط وزفهم إياه كلما رأوه بكلمة.. الأغلف ـ أو أبو غلفة.. جاكم.. جاكم.. أبو غلفة.. أذعن الوالد والولد لموس أبو سداح.. وكان طهور الشاب بمثابة معركة رهيبة دارت بينه وبين الرجال الأربعة الأشداء الذين كتفوه بسواعدهم بعد ربطه بالحبال ـ ولقد روينا هذه الحادثة وسجلناها نقلاً عن الأستاذ محمد سعيد مات ـ بولي لأجل العبرة والعظة. فكم يجني تدليل الآباء على الأبناء على قول أبو سداح يوم طهور هذا الشحط!!

وأخيراً ـ فمهما تحدثنا عن أبو سداح ـ وقد تحدثنا طويلاً عنه..

فإننا لن نفيه حقه وبالأخص نحن كهول وشيوخ اليوم إذ ندين له فعلاً بما فعله فينا ـ ونحمد الله إذ قام ورثته بإعدام ما كان موجوداً في «الشكمجية» التي كان يحتفظ المرحوم بها في دكانه والمحتوية على أنواع من الغلفات المستردة من العوائل بعد جفافها.. وانتهاء لازم تعليقها في رقاب الأبناء. حتى لا يسعى كل منا إلى استرداد وديعته. للذكرى.

أما سبب تسمية أبو سداح «أبو سداح» فيقال إنها نتيجة «سدحه» الدائم لكل من وقع بين يديه من الصغار لطهورهم ـ ومن الكبار لحلق رؤوسهم أو تشريطهم ـ أو حلق آباط البعض منهم.. وبرجوعنا للقاموس وجدنا أن الحق بجانب هؤلاء.. فكلمة أبو سداح للمبالغة عربية فصيحة.. إذ أن من معاني فعل «سدح» معنى بسطه.. على الأرض ـ أو طبعاً على كرسي الطهور أو كرسي الحلاقة.. فاشتغل فيه بنور الله دون قيامه بمناولة الزبون كف الحلاقة، أي التسقيط على الرأس ـ للتنعيم ـ اكتفاء منه ـ تأدباً ـ بقوله له.. نعيماً وبس.

.. لقد شافهنا الكثير ممن قابلونا.. على خلف الخاطر.. وجهاً لوجه بمناسبة وبدونها ـ وكذلك من كتبوا باسمنا على العنوان الآتي.. طريق الميناء ـ جريدة عكاظ الغراء.. الدور غير الأرضي.. وأيضاً من تلفنوا لنا على بيتنا الكائن قريباً من شارع الأحساء الطويل العريض والذي لم تتم سفلتته حتى الآن رغم ما قام به سعادة الأستاذ محمد سعيد فارسي من سفلتته وحفحفة بعروس البحر ـ دهليز الحرمين ـ جدة ـ أم الرخا والشدة ـ ومشاريع بلدية عمرانية تذكر ـ وعلشانها يشكر.

وكل هؤلاء الذين شافهونا ـ وكتبوا إلينا.. وتلفنوا إلينا.. على لسان واحد ـ أو بريد مشترك ـ أو تلفون متداخل.. يطلبون منا بمحبة وإخلاص

وحرارة أن نقوم بعد انتهاء سيرة أبو سداح ـ وقيامنا «بتطهير» اسمه مما علق به من شوائب.. أن نكرم ذكراه الثلاثينية والتي سيأتي موعدها بعد أيام بمقطوعة «بموس» شعري ناعم.

وحيث إن هذه الظاهرة الجميلة.. والبادرة الحسنة تدل من كل أولئك وهؤلاء على روح شعبية أصيلة لا تنسى لمن فعل بأجدادهم أو بآبائهم أو بهم شخصياً ما فعل.. وتستحق الاستجابة تزكية لها.. فإننا نبادر بإصدار هذا الملحق من الشعبيات.. وفيه ما يطلبه الأعزاء الغالين علينا ـ نزولاً على حكم المثل الشعبي القائل، غالي.. وطلب رخيص.. وإليكم التالي في التالي.

علـيـك.. أبـا سـداح ـ تـشـهـق جـدة
وتبـكـي.. إذا مـا جـاء ذكـرك.. يـا غـالـي
فـمـا زلـت فـي كـل الـبـيـوت. لأهـلـهـا
لأولادهـا.. عـنـد الـطـهـار عـلـى الـبـال
لـقـد كـنـت سـديـداً كـريـمـاً بـفـنـه
وبـالـمـوس شـغـالاً بـراحـة شـغـال
طـهـوراً وتـشـريـطـاً.. وحـلـقـاً لـقـنـجـة
تـضـيء.. كـمـا ضـاءت مـرايـة خـالـي
فـيـا طـالـمـا نـظـفـت بـاطـاً لـراجـل
فـقـال الـذي مـن بـعـدو:
يـا رب عـقـبـى لـي!!
رحـلـت.. ولـم تـتـرك وراءك أغـلـفـا
لـديـنـا.. وهـذا فـعـل أطـلـق رجـال

وعشت.. بك البزرا.. تقول لأمها
إذا فجعتها.. سوف أرقد في الحال

هنيئاً لك التيس الصغير شويته
لدى الفرن.. أو طقطقت منه بأوصال

إليك أبا سداح أنهي عريضتي
فإن قلت. قدمها أتيتك.. طوالي!!

ظَرِيفَهْ..

لو سألت الكثيرين ممن كانوا يتابعون برنامجنا الإذاعي الشعبي المشهور في حينه «ع الحلوة ـ والمرة» بشخصيات عائلته ابتداء من ظريفة وانتهاء بعمو رمدان. عن السبب الأساسي في تسمية البطلة باسم «ظريفة» لأجابك كل واحد منهم إجابة مختلفة عن الإجابات الأخرى.. وقد تكون تلك الإجابات أو الإجابة منطقية مقنعة في ذاتها.. ولكنها لا تحدد أبداً مضمون اسم «ظريفة» ولا تكشف عن شخصيتها الشعبية الحقيقية المستترة في ذلك المضمون والتي انفردت بهذه التسمية طيلة قرن إلا ربع القرن في قلب مدينة جدة وضواحيها منطلقة من عزلتها الصغيرة المجاورة لفرن الحنبولي تجاوزه السور القديم إلى الخلاء على حل شعرها.. بحيث لا يرد رأسها إلا مركز أم السلم بدرب مكة المكرمة شرقاً.. أو جسر الكراع بطريق المدينة شمالاً فإليك المضمون.

اسمها ظريفة ـ وهي ظريفة فعلاً سواء في حديثها الحلو الساحر حيناً ـ والساخر أحياناً. أو في قوامها الرياضي الممشوق كالرمح ـ أو كالشوحط والخيزرانة الطويلة. يجعلك تنسى أن تطالع تفاصيل وجهها ومعارفه الجزئية ـ فلا تكتشف بذلك أنها لم تنل من قسمات الجمال ما يؤهلها لأن تطلق عليها كلمة جميلة.. أو حسناء.. مكتفياً أنت كما اكتفت هي

بأنها من ناحية الشكل العام.. مقبولة.. فقط لا غير.. وهي تعتز دائماً بأنها مقبولة شكلاً لسبب وحيد ووجيه وعزيز في نظرها.. هو أن اسم أمها المرحومة «مقبولة» وكان لها ولع كبير بأمها في حياتها وحتى بعد مماتها. فإن تلك الوالدة التي كانت تبيع الفول النابت في أول سوق النورية القديم بجدة هي التي غرست فيها روح العمل الحر.

لقد نشأت ظريفة وهو اسمها واسم شهرتها معاً محبة للعمل وللكسب بدافع قوي من حالتها التجارية التي اذكتها فيها والدتها «مقبولة ـ ولكنها لم تنزل إلى العمل التجاري في نفس الميدان الذي خاضته والدتها ـ وهو بيع الفول النابت ـ وإنما فكرت ظريفة ـ ثم فكرت ـ ثم قدرت.. فاختارت ميادين أخرى لهذا العمل. وذلك في الوقت الذي كانت فيه نساء المدن، ومنها مدينة جدة.. لا يعرفن إلا الزواج.. فخدمات الزوج والبيت ليس إلا.. وفي نفس الوقت الذي تركت فيه لبنتي خالتها كباية وعسله بيع الفول النابت في أول سوق النورية القديم خلفاً لخالتهم المرحومة ـ مقبولة.

هكذا دخلت الست ظريفة مجال الأعمال الحرة وليس لها رأس مال يعتد به.. أو يذكر في عالم الأرقام.. إذ إنها حين تحدثت عن نفسها في مستقبل ايامها ـ وبعد شهرتها ورسوخ قدمها.. وذلك في ريبورتاج صحفي.. قالت مثلما يقول كل الناجحين في عالم المال بعد نجاحهم.. إنها بدأت أعمالها التجارية الحرة بدون رأس مال تقريباً.. وبذلك أثبتت أن التاجرة الناجحة.. أو التاجر الناجح هي أو هو من يصنع المال.. وليس الذي يصنعه المال الموروث.. أو المستلف من الأهل والأصحاب. أو من البنوك بفائدة مئوية أو بدونها!

لقد ابتدأت ظريفة بنصب «اللوح» أمام عزلتها.. واللوح كلعبة شعبية رياضية عبارة عن لوح من الخشب مربوط من أطرافه الأربعة بحبال تنتهي في أعلاها بقندل يمسك كلاً من طرفيه قندلان آخران مغروزان في الأرض على شكل مثلث.. ويرتفع اللوح نفسه عن الأرض معلقاً في الهواء بمقد نصف أو ثلث متر.. وما على طالب اللعب في اللوح والتمدره به إلا أن يصعد وأن يمسك بالحبلين الأماميين.. ويهزهما هو أو يهزه سواه من الأرض فيهتز به اللوح تدريجياً حتى يعلو في الفضاء بقدر عزم اللاعب عليه. ويجوز أن يعتلي اللوح لاعبان متقابلان وجهاً لوجه.. ورأساً برأس يمسك كل منهما بحبلين من الحبال الأربعة «ويتنافحان» بين وأمام أنظار الجمهور المتفرج وتصفيقه أو تصفيره.

ومن المعلوم أن للعبة على «اللوح» زمن مقرر ولهذا الزمن المقرر تعرفته المقررة أيضاً.. وقد بدأت ظريفة التعرفة بهللة وانتهت بها إلى هللتين وعلى حد تعبيرها.. ومن الهلل تتكوّم القروش.. علماً بأنه يجوز للاعب بعد انتهاء المدة الأولى تجديدها بعد دفع الهللة أو الهللتين ـ لتجديد اللعب أو النفح المفرد ـ أو المجوز.

وحين نجحت لعبة اللوح.. وتضخمت وارداته الهللية حيث أقبل عليه صبيان وغلمان وفتيان المحلة ـ محلة المظلوم ـ والمحلات الأخرى فكرت الست ظريفة أن تستفيد من جمهور اللاعبين على اللوح وكذلك المتفرجين، فاقتنت صاجاً.. واشترت زيتاً وحطباً وفحماً.. ثم خمرت الكشري وخلطته ببهاراته المقننة وفرمت عليه الكرات.. وابتدأت حالاً في صنع المقلية.. المقلية التي طارت شهرتها في جدة فصارت تعرف بمقلية ظريفة.. ثم اصبحت الطبق المفضل لدى بيوت الحي.. ثم الأحياء

المجاورة له.. وأحيني اليوم. وقابلني.. غداً!!

.. وحتى لا يصدق على الست ظريفة.. لا على المقلية.. المثل القائل صاحب صنعتين كذاب.. فقد عهدت بعد رواج اللعب على اللوح أولاً.. ثم اشتهار المقلية ثانياً إلى ركن خارجي من عزلتها الصغيرة الملاصقة لفرن الحنبولي وذات الحوش المكشوف فعملت في الركن ما يشبه الأكشاك الآن.. وجعلته كهيئة «بوفيه بلدي صغير» وهيأت به للزبائن المكسرات الشعبية المعتادة من الفشار.. للفصفص.. للزرمباك.. للوز.. للحمنبص.. لسواها.. ووفرت المنعشات الدارجة تلك الأيام.. من السوبيا والزبيب البارد صيفاً. إلى المغات والسحلب شتاءً.. مع الاعتماد على كفتيرة الشاهي في كل الفصول باعتباره المشروب المحلي الشائع.

وبقيام الست ظريفة بتأسيس البوفيه البلدي ضربت ببقية المثل السابق عرض الحائط فقد باتت الغلات الثلاث من اللوح. للمقلية لمعروضات الكشك بمثابة تكذيب عملي لهذا المثل الدارج البائخ.. صاحب صنعتين كذاب. والتالتة منافق.. كما أصبحت هذه الغلال دليلاً أو أدلة مادية على أن «التخصص» التجاري في صنف واحد ليس هو وحده سبيل النجاح.

.. لقد علق منذ أكثر أو حوالي نصف قرن من الزمان أحد كبار التجار في جدة ممن يدعون بالاقتصاديين اليوم على الست ظريفة وأعمالها الثلاثة بقوله «لقد اثبتت الست ظريفة أن المرأة الشعبية في بلادنا قادرة على أن تكون نجماً اقتصادياً.. وأنها تحسن العمليات الحسابية الأربع دون ورقة أو قلم.. وذلك بتشغيل مخها.. ثم تحريك أصابع يديها.. فقدميها إن لزم الأمر في حالتي الجمع.. أو الطرح.. دون الاعتماد على عملية «الضرب» التي لا تناسب الجنس الناعم اللطيف.. ولا لزوم لها..

ولا الاعتماد كذلك على عملية «القسمة» فلا حاجة لها باعتبار أن «القسمة» حظ.. ونصيب».. انتهى تعليق الاقتصادي الكبير.

هذا.. ولم يكد أحد معارف الست ظريفة ممن يفكون الحرف أيامها يطلع على نص التعليق حتى طلبت الست ظريفة فوراً من قائله.. بعد إهدائه صحناً محترماً من المقلية وسلطتها ـ أن يكتب ما قاله عنها بخط جميل واضح.. وعلى «لوح» من الخشب المصقول «بالفارة» ففعل طبعاً. وقام بكتابة ما طلبته ظريفة نزولاً على المثل القائل ـ اطعم الفم ـ تستحي العين.. وحينذاك. وكأسلوب من أساليب الدعاية والإعلان التجاري في حينه قامت بتعليق اللوح الخشبي المكتوب فيه التعليق بخط ثلث رائع.. بعد بروزته بقصاصات من التنك اللميع في واجهة عزلتها الصغيرة ذات الحوش المكشوف على مرأى من «اللوح» ومن صاج المقلية.. ومن كشك بيع المكسرات والمرطبات وبمواجهة الزبائن والمارة.. فطار حد اللوحة الخشبية المبوزة بعد أن طار حد اللوح والصاج والكشك..

ومن الغريب في هذا الباب ومتعلقاته أن الاقتصادي الكبير صاحب التعليق صار بعد تعليق اللوحة التي تحمل كلماته القيّمة أحد المواظبين على الحضور إلى مقر الست ظريفة. ويحكي المرحوم عمدة المحلة أن هذا التاجر أو الاقتصادي الكبير الشهير وكان يحفظ بعض الكلمات الإنجليزية أحضر معه ذات مساء أحد الخواجات المولعين بالدراسات الشعبية وزعيم إحدى النقابات العمالية في بلده لمشاهدة الست ظريفة وأقسام الأعمال المختلفة لديها وتحت إدارتها وحدها.. وقد أخذ منها كافة المعلومات اللازمة.. وكيفية عمل المقلة والسحلب.. كما صوّر اللوح.. ورسم الصاج.. والكشك ومحتوياته.. واللوحة المعلقة على

واجهة العزلة سكنى الست ظريفة.. ومن الخارج فقط..

وسمعت فيما بعد من العم أبو شنب وكان أحد المتعاطين للتجارة في بومباي أنه رأى.. بدعوة من أحد زبائنه المثقفين هناك.. في معرض خاص أقامه الخواجه نفسه اللوحات المختلفة التي رسمها للست ظريفة وأعمالها.. تحت العناوين الآتية:

أ ـ ظريفة ـ عصامية من جدة تسكن محلة المظلوم بجوار فرن الحنبولي.

ب ـ المقلية.. طعام شعبي.. رخيص ولذيذ.

ج ـ السحلب.. مشروب بلدي ساخن.. ينوب عن المدفأة التقليدية في الشتاء.

و ـ اللوح.. لعبة رياضية عربية.. وإن كانت كلمة «اللوح»أحياناً تستعمل للشتيمة.. حين يقول أحدهم للآخر.. روح «يا لوح» البعيد!!

وكم اشتهيت حينذاك لو كانت الست ظريفة حية لم تنتقل إلى دار البقاء.. لترى.. دون أن تقرأ.. صورتها منشورة في التايم الهندية ـ كما ترى اللوحات المسجلة لأعمالها بكل فروعها. وحتى ترفع رأسها فخراً كما فعل العم أبو شنب الذي أصبح ـ على حد قوله ـ مطارداً من الصحفيين والمراسلين الأجانب لأخذ كثير من التفاصيل عن حياة العصامية المرحومة الست ظريفة.. والذي كان يردد لكل منهم جملته الحلوة كلما طلب الانفراد به.. بكره قابلني!!

على المنوال السابق طارت شهرة الست ظريفه ـ دون علمها ـ إى خارج مدينة جدة.. كما ارتفع دخلها اليومي ـ وهذا الذي يهمها ـ إلى

أرقام هائلة من الهلل والقروش والريالات.. فقد قدر أحد المحاسبين الأكفاء في تلك الأيام وهو محاسب قدير من وزن المرحوم الشيخ عبد الرزاق هنداوي.. وقيل إنه هو.. قدر الربح الأسبوعي الصافي للست ظريفة بعشرة ريالات.. وكان الريال آنذاك في مقام المائة أو المائتين الآن بنسبة قوته الشرائية لكل الأصناف المتوفرة والرخيصة.. فضلاً عن ضمان معدنه الفضي.. وهي ناحية لا يستهان بها في مجال المقارنة بين المعدن.. والورق.

ونتابع أسلوبنا الجاف الناشف لمطابقته لروح الأرقام والأعمال التجارية فنقول عن الست ظريفه أنها استطاعت في خلال سنوات ـ لا بأس بها ـ أن تشتري الخرابة القريبة من عزلتها وأن تنشئ عليها بيتاً صغيراً خصصته للإيجار.. فأضافت بما عملته ـ وخيراً عملت ـ مصدر دخل جديد.. رابع!!

تلك هي الست ظريفة إحدى رائدات الأعمال التجارية الحرة في بلادنا.. وفي مدينة جدة على الحدود بين محلتي اليمن والمظلوم.. وتلكم هي أعمالها الرئيسية الأربعة.. وهي اللوح.. المقلية.. الكشك بمرطباته.. والعزلة المخصصة للإيجار.. علماً بأن هناك أعمالاً فرعية لم نتعرض لها ولم ندخلها في الحساب مثل صنع «الدانجوه» وبيعه بالحبة.. ومثل تصنيع «السويك» وتسويقه بالقرطاس.. ولقد كان الإقبال الجماهيري على مص الدنجوه.. وسف السويك حينذاك كالإقبال على الشيكلس.. وسندوتش الشارومة ـ اليوم.

أما حياتها الخاصة والشخصية ـ يرحمها الله ـ فإنها لم تذهب إلى الفقيهة.. كمعاصراتها من الطبقتين العليا والوسطى.. ولم تفك الحرف..

ولكن أميتها التامة لم تمنعها من اقتحام أبواب العمل التجاري الحر شأنها في ذلك شأن بعض كبار التجار العصاميين في زمانها وما بعده بقليل.. مما يثبت أن التعليم أداة تثقيف وتنوير شخصية وأنه تدريب منظم للارتزاق.. ولكنه ليس هو الأصل والحوار في التجارة.

كما أن الست ظريفة أصرت على رفض الزواج إلا بعد تكوين نفسها تكويناً مادياً لا يجعلها تحت رحمة الزوج.. فصدت كثيراً من خطابها مثل: جنقر.. والكنجفا.. وأبو كريشة.. وبجبج.. ـ ونكرر الملاحظة بأن كل الأسماء حقيقية ومعروفة من أهالي جدة ـ وكان هؤلاء الخطاب شباباً وأصحاب صنعة ورثوها عن آبائهم فأولهم نوار ـ وثانيهم منجد.. وثالثهم بناء.. ورابعهم نجار.. ولكنها بطبيعة ذكية قبلت ـ حفظها الرحمن ـ فيما بعد أن تتزوج «القطله» وهو من أكبر صانعي الشيش في زمانه.. وكذلك صنع الشرابيس التنك.. والقطله هو اسم الشهرة التي انفرد بها المذكور بين أترابه ثم في الحارة ثم في مدينة جدة ـ وأظن أن أبناءه و أحفاده لا يزالون يتوارثون هذه التسمية التي أصبحت لقباً ثابتاً لهم.

ويرجع السبب الجوهري في قبول الست ظريفة.. أو الآنسة كما كانت حينذاك.. لزواجها من «القطله» أنها كانت تدمن شرب التنباك الحمى.. فضمنت بهذا الزواج اقتناء أحسن الشيش وأفضل الشرابيش مع إصلاحها مجاناً عند اللزوم.. ومع إصرار ظريفة دائماً على قيامها بنفسها بتوضيب التعميرة الحمى.. بتشديد الميم.. وبرص الراص.. ولم تستنكف يوماً من الأيام من مداعبة «اللي» بفمها أثناء تأدية أعمالها الحرة الناجحة.

ومما علق بذاكرتي وما رواه لي أحد أبناء عمومتي.. وكان مستأدباً على الطريقة القديمة.. الأبيات التي غناها المرحوم المغني الجداوي والد حسن شلبي ليلة دخلة الآنسة ظريفة على عريسها القطله وهي:

يا طيور الأفراح.. طيروا.. وطيروا

وكلوا زينا الكباب الميرو

واجمعوا القطلة الكبيرة انسا

بظريفا.. وللسرور اشيروا

وعلى اللوح والمداريه.. غنوا

وإلى العزلة الصغيرة سيروا

فسر الحاضرون ليلة الفرح بهذا المجس المؤنس كثيراً.. وأصبحت تردده مجالس الطرب القديمة لوقت طويل.. ـ وللعلم فإن «القطلة» نوع من أنواع العصى. وهي بالتحديد أصغر من الشون «أي النبوت» وأكبر من «الدبسه».. وهي عصا غليظة قصيرة كان يستعملها الأعراب والبدو أكثر من استعمال سكان المدن «أي الحضر».

.. أما ظريفة في زيها اليومي.. فقد كانت مثال البساطة والحشمة والأناقة في وقت واحد.. فهي دائماً ترتدي «الكرته» المصنوعة من قماش رخيص.. منسدلة من رقبتها إلى مشطي رجليها.. وكرتتها. أي فستانها.. سادة على الدوام.. فهي لا تحب النوع المشجر والمشابه للقمصان الأمريكانية الشائعة في عصرنا هذا وفي خارج بلادنا.. مع حرصها على وضع الشنبر الكحلي والمحرمة والمدورة على رأسها في المناسبات الهامة.. أما في يومياتها العملية فتكتفي بالمسفع رامية أطرافه

على الكتفين بشكل يشبه الغترة الحالية.. وذلك من أجل سهولة لف المسفع على رقبتها حين يحمي وطيس الشغل..

هذا ـ وبمناسبة الكرتة والشنبر والمحرمة.. فقد حدثت في حياة الست ظريفة حادثة ظريفة كذلك.. ولعلّ من تزكية ظرافتها اتصالها بالناحية الأدبية.. والشعرية بالذات. وتفصيلها حسب رواية المحتفلين بالأدب والمتتبعين لطرافته منذ حداثته.. كالآتي ـ

كان الأستاذ محمود عارف غلاماً يعشق الشعر للشعر.. وكانت له تجاربه الأولية التي يعرضها للمباسطة وللمناقشة على زملائه في المدرسة الفلاحية وفي الكار.. وهم محمد علي باحيدرة.. وسالم أشرم.. وعباس حلواني بحضور وبإشراف الأستاذ محمد حسن عواد في أحد المقاعد البيتية المطلة على مداريه عيد المضلوم بجوار بيت بابعير. وهو مقعد باحيدره..

وصادف أن مرت البشكة كلها في تمشية عصرية أمام بيت الست ظريفة.. وصادف أيضاً أن الست ظريفة كانت يومها ذاهبة إلى زيارة عائلية.. وقد ارتدت الكرته والمدورة والمحرمة والشنبر ووقفت تتفقد الأعمال قبل ذهابها للزيارة.. وترشد ابنها البكر.. وقد أصبح فيما بعد يبيع الحوت السلماني.. إلى ما يجب عليه عمله وملاحظته حتى حين رجوعها.. فما إن رآها الغلام الشادي للشعر محمود أفندي عارف حتى ندخ قائلاً:

ظـــريـــفـــة ـ ربـــة الـــكـــرتـــه ـ

مـــن الـــدوت.. إلـــى الـــبـــفـــتـــه ـ

وذات الشنبر الكحلي ـ
ومحرمة ـ لها ـ شفته ـ
أليس ببيتكم طرشي ـ
خياراً ـ كان ـ أوقته؟
ونعناع ـ ببراد ـ
نصفيه من العته؟

* * *

لقد قدحت ـ على قلبي ـ
صبابات ـ كما الفتَّه ـ
وحب صادق عذري ـ
كلحم الرأس ـ لا الكفته ـ
فإني معجب ـ فعلاً ـ
بست البيت ـ والحته ـ
وتكفيني ـ بلا طمع ـ
على الماشي ـ
هنا ـ لفته!!

.. ولم يكد أبو عروف.. سابقاً.. وأبو نزيه لاحقاً.. يترنم بمقطوعته التجريبية الشعرية فتشيع بين الناس لسلاسة ألفاظها.. ورشاقة صورها.. وخفة روحها ـ وتصل فيما بعد إلى أسماع الست ظريفة حتى قامت قيامتها. وإن لم تخبر زوجها القطلة.. في أول الأمر.. بالأمر.. فصرخت في الحارة بأعلى صوتها ـ وبجمل متناثرة غاضبة:

هو مين هو هادا الولد محمود عارف حتى يقول في.. الأقوال..؟

هو ما يعرف أنو زي بزره من بزورتي؟ وإني أجيبو.. وأجيب عشرة زيو؟

والله إذا ما خليتو يبطل يمشي من هادا الزقاق ما أكون أنا ظريفة؟

وحين خرج زوجها القطلة على صراخها.. وسألها عن سببه.. أجابته قائلة:

ظريفة: لا.. ولا حاجة يبو «كنبش»!!

القطلة: امال بتصرخي ليش.. يست الستات؟

ظريفة: الولد اللي ما يستحي.. ولا أهلو ربوه.. واللي اسمو عارف شرد بحق اللوح!!

القطلة: مسيرو يطب فيدي.. وأنا أوري لو شغلوا!!

وانتهى الأمر مؤقتاً عند هذا الحد.. حتى سمع المرحوم العم حسن عارف بالموضوع وهو شقيق محمود الأكبر.. فتلافى القضية بعمل «ملفا» جمع فيها العمدة وكبار المحلة.. وأعتذر للقطلة باعتبار أن أخاه محمود شرد بالحساب لأنه لم يدفع له يومها المقرر اليومي له..

وعلى أثر هذه الحادثة فقد صمت الشداة من الشعراء خوفاً من لسان الست ظريفة.. ومن قطلة العم «القطلة».. ويقال إن ظريفة اتخذت المقطوعة كفرع من فروع الدعاية. للارتقاء بنمط زبائنها ـ وكنت أحدهم.. ونزولاً على قاعدة.. والغواني يغرهن الثناء.. وإن لم تكن ظريفة منهم ـ إلا أنها أنثى بطبيعة الحال ومهما كان سنها. فقد طلبت مني تشطير المقطوعة ـ وتخميسها.. ولما كنت أعرف قدر نفسي من جهة ـ

وأصغر سناً من الأستاذ محمود عارف بما لا يقل بحال من الأحوال عن خمس أو ست سنوات فقد تخلصت من الأمر بقولي لها مشافهة.. ودون تسجيل هذين البيتين:

ظريفة.. سيبيني بحالي.. فإنني
ظغير.. وهل يقوى الظغار.. على الشعر؟
سألعب فوق اللوح دوراً بحاله..
فلا تطلبي القرشين مني.. على الدور!!

.. وبالمناسبة ـ وفي الأخير ـ فقد كان كاتب هذه السطور الشعبية التاريخية في يفاعته ومنذ حداثته.. فعلاً.. أحد الزبائن المدمنين على ركوب لوح الست ظريفة مفرداً.. ومجوزاً.. وعلى الاكتفاء بمقليتها الطعمة عن وجبة العشاء.. وعلى التلذذ بشرب السوبيا صيفاً.. والسحلب شتاء.. تماماً كما يفعل ابناء الجيل الحاضر حين يضربون عن الأكل ببيوت أهلهم اكتفاء بسندوتشة.. أو بزجاجة من هذه المياه الغازية الفوارة.. أو بقطعة من الحلاوة والتشكلس.. في فسحات المدارس أو لدى الخروج منها.

كما كان كاتب هذه السطور مغرماً غراماً فنياً مبكراً بمتابعة الجمل الموسيقية البلدية التي كانت الست ظريفة ترسلها عفو الخاطر.. في صورة إصدار الأوامر والنواهي لزبائنها الصغار.. وخصوصاً من هواة اللوح وركوبه المستمر.. أو من المواظبين على تناول المرطبات كلما جفت حلوقهم.. ونزت عرقانهم.. أو على تناول المقلية كلما غنت عصافير بطونهم الصغيرة إشارة لطلب الزاد.. والزاد مراد.

ومن الأمثلة على تلك الجمل الموسيقية والتي لا يزال بعضها عالقاً بالذاكرة الماكرة الخائنة.. الجمل الآتية:

أ ـ يا الله أنزل.. يواد!! وقتك خلص!! اللي عليه الدور.. يوقف اللوح!!

ب ـ بلاشي زحمة.. أنت وهو!! ما في فايده.. بالسرا.. واحد.. واحد!! امال أنا عملت الصرا ليش؟

ج ـ وعن المقلية: مقلية ظريفة!! كشري وكرات.. وعدوك مات!! وهي حارة.. يوليد!! والحارة عليها.

و ـ وعن السحلب: اتسحلب.. واتدحلب!! بدخانو.. وغيري يعزل دكانو!!

وطبعاً.. وعلى أساس ما سلف.. فقد أصيب المذكور أعلاه.. أي كاتب هذه السطور بصدمة نفسية قاسية حين سمع بوفاة الست ظريفة في يوم عاصف.. حيث كان الطقس حاراً جداً.. والهوا أزيب.. والغبرة تايره.. والناس ما تشوف بعضها.. مما اضطر والده لحبسه في البيت منعاً له من الخروج منه.. وبالتالي من المشاركة ولو من بعيد لبعيد ـ باعتباره صغيراً ـ في تشييع جنازة الفقيدة العصامية.. ورائدة الأعمال النسائية الحرة.. والتاجرة الشاطرة الماهرة.. ولكنه اغتنم الفرصة ليلاً فقام بالواجب حيث شارك في مراسيم العزاء لزوجها القطلة.. ودخل بحكم السن داخل العزلة الصغيرة ذات الحوش المكشوف فعزى قريباتها.. وفي طليعتهن ابنتها الست «زردخ» الساكنة حالياً بجوار مقبرة الأسد.. والتي تناولت الغداء بالفعل في بيت كاتب السطور في الأسبوع الماضي ومع أهله وإن لم يقابلها لعدة أسباب.. كما قام بتعزية السيدات المرحومات

كبايه.. بتشديد الباء المفتوحة.. وعسله.. ونمروسية.. وبنت الزلطه!!

ظريفة.. يا أخت الرجاجيل.. إنني
زبون.. ومن حق الزبائن. أن يَبكوا
فكم عشت في اللوح المعلّق في الهوا
أنافح من دقوا الرؤوس.. إذا احْتكُّوا
وكم أنا للسوبيا محب.. وعاشق
لدنجوهك الحالي.. يحن له الفَكُّ
القط حبات الفشار.. وانتشى
بمقلية طعما.. عليها لنا الرَّكُّ
لقد سال دمعي.. حين قالوا: ظريفة
توفت.. فواساني بعزلتك الكُشْكُ
أحَوم حواليه.. وطيفك ماثل
أمامي لوحدي.. فالجماعة قد فَكُّوا
وسيبت راص المال.. والربح كله
يبعثره القطلا.. ويلهو به عُكّوا
هو المال.. للمحروم.. للنزهي غداً
بذا تصدق الأمثال
ليس بها شَكٌّ

هُولَ اللّيلْ . .

. . لقد سبق لنا في مقدمة الحديث عن «الدجيره» أن تعرضنا ما كان الخواجه إيكيليا البقال اليوناني يعايرنا به بأن بلادنا تخلو من الأساطير الشعبية التي تدل على أننا لا نؤمن إلا بكل ما هو ملموس. . أو معدود. . أو ممضوغ. . فنحن فقراء جداً في دنيا الخيال ـ وعالم الأطياف. . بعكس سكان أثينا الذين حفل تاريخهم بالميتولوجيا الإغريقية. . وهذا ما حز في نفوس أهالي جدة الكبار حينذاك. . مما دفع بكاتب هذه الشعبيات أن يذهب إليه في دكانه. . وأن يتحداه أن يمر بزقاق الخنجي بعد منتصف الليل ليرى وليقابل «الدجيره» إن كنّو رجال. . وخواجا من صحيح!!

ولا نذيع سراً إذا قلنا إن إيكيليا تحمس فعلاً للموضوع ولم يقبل الهزيمة أمام ولد صغير من أولاد جدة الذين يدرسون في مدرسة الفلاح. . فقرر ذات ليلة أن يذهب إلى زقاق الخنجي بعد نص الليل. . ولكن للاحتياط فإنه أخبر أخاه في الصنعة الخواجه «يني» بما اعتزم القيام به. . فحذره من عاقبة هذه المجازفة واشتد الجدل والنقاش بينهما أمام أفراد العائلة. . وانتهيا أخيراً إلى ضرورة الاستئناس برأي السنيور «ماركو». . الإيطالي المقيم أيامها في جدة ـ كصاحب دكان وسواه!!

ومن اللازم قبل الدخول في تفاصيل ما تم بين الطلياني ماركو والأقاريق إيكيليا ويني وعائلتهما أن نتعرض بإيجاز لحيثية ماركو.. فهو صاحب الدكان المعروف باسم محل ماركو.. وكان مقره في صف الدكاكين التي تجاور سوق الحراج والتي يقع حالياً في صفها دكان الفتيحي الصائغ. كما كان سكناه في بيت عائلة الشبكشي وهو البيت الذي اشتهر بعد الهدميات باسم بيت الذهب الذي كان سبباً في تسمية الشارع الطويل العريض الحالي باسم شارع الذهب.

كما كان ماركو هذا صديقاً للكثير من زبائنه.. ولجيرانه من صف الدكاكين وبالأخص للشيخ خليفة بياع السجاجيد في الدكان الذي يوجد به الآن دكان بيع المشالح ورفيها والذي كان ملاصقاً لدكان بقالة إيكيليا ويني قبل الهدميات الأخيرة والحديثة جداً..

ومن غير إطالة في التفاصيل فقد أيد السنيور ماركو ذهاب إيكيليا بعد منتصف الليل لزقاق الخنجي لرؤية الدجيرة ولمقابلتها وأخذ حديث صحفي معها باسم صحيفة المساجيرو الإيطالية التي كانت في بدء تأسيسها آنذاك باعتبار أن ماركو قد قبل أن يكون مراسلها في جدة.. ولكنه اشترط شرطاً وحيداً.. وهو أن يذهب أفراد العائلة جميعاً ويرابطو في أول قصبة الهنود حتى إذا حدث لإيكيليا ما لا تحمد عقباه سارعوا إلى نجدته، أو إلى إنقاذه أن تعرض لخطر أكبر..!!

وبدون تطويل أيضاً.. ومن جديد ـ فقد ذهب الخواجه إيكيليا.. وخش الزقاق بعد نص الليل.. ورأى الدجيره بقنعتها.. وببرقعها ـ وشيلته البقجة.. ورقصت أمامه رقصة المزمار.. وضحكت في وجهه الضحكة الرهيبة، آخر الأمر.. وتلاشت كالطيف.. بعد أن اطمأنت إلى أن

الخواجه إيكيليا قد عملها في بنطلونه من الرهبة والخوف.. وجرى مهرولاً حيث يرابط افراد العائلة الذين تلقوه بين أحضانهم مرتعداً منتفضاً وكأنه تحت تأثير حمى بلغت درجة الحرارة فيها حوالي الأربعين..

ويذكر أحد أفراد العسس الذين كانوا هناك أن ايكيليا عاد فتمالك نفسه حين أبصر بنته الصغيرة تخرج لسانها له ـ أي لأبيها ـ فاستعاد رباطة جأشه ووضع ابتسامة تقليدية على شفتيه.. وسارع إلى زوجته التي فاجأت بقولها:

الزوجة: بوسس سيه؟ يعني كيف الحال؟

إيكيليا: كالاه!! كالاه كالاه!! يعني: طيب!! ـ طيب!! ـ طيب!

الزوجة ـ ها؟! انتو سفتوها.. دجيره هادي؟

إيكيليا: سفتوها سفتوها بعيني هادي اللي بكره يأكلها الدود!!

الزوجة: هي خلوة؟ خلوة؟ أوريا؟ أوريا؟ يعني جميلة؟ جميلة؟

إيكيليا: بولي ـ بولي ـ أوريا!! يعني عال جداً.. جداً عال!!

الزوجة: وايس كلتو؟؟ وايس هي كلتو كمان؟

إيكيليا: أنا كلتو: كالي ميرا؟ هي كلتو: كالي ميرا؟ بعدين أنا كلتو: باركا لو.. و.. و..

الزوجة مقاطعة: وه!! وه!! وه!! هو أنت سويت إيه في البنطلون حق الانت.. يا إيكيليا؟

إيكيليا: لمن نروخوا للبيت انتي غسلي البنطلون.. بس ما أحد يشوفو.. ها؟ وهنا يحسن أن نتوقف عن بقية القصة المتعلقة بالأقاريق وبماركو.. ونكتفي أن يكون ما سبق دهليزاً للحكاية عن بطل أسطوري

شعبي آخر.. هو.. هول الليل!!

.. وهول الليل ـ وهذا اسم شهرته الطويلة العريضة في سجل أساطيرنا الشعبية.. وليس هو اسمه المحفوظ في دفتر مواليد طائفة.. بسم الله.. بالطبع.. وإن كان معروفاً أنه من كبار الطائفة بل إنه أكبرها حيث أن نفوذ هول الليل يتعدى المدن إلى حيث الخلاء الواسع والممتد على طول الطرق بين جدة والمدينة من جهة.. وبينها وبين مكة فالطائف وما بعدهما..

وهول الليل ـ عائلياً.. هو خال أظرف جنية في أساطيرنا الشعبية.. إنه خال «الدجيره» وكفاه بذلك شهرة وفخاراً. كما أنه شقيق «الهمية».. أمها ـ وصهر البعبع زوجها.. أما أبواه غير الشرعيين فهما العفريت والغوله. في أشهر الأقوال.

وينفرد هول الليل ـ وهذا سبب زيادة نفوذه وامتداده.. بأنه مختص بإدخال الرعب والفزع في قلوب الرجال وحدهم دون النساء والأطفال.. وخصوصاً وأن من أوائل الرجال الذين يحسبون حسابه دائماً.. ولا يفزعون إلا منه الرجال الذين تعودوا السير ليلاً في الخلا الخالي والرب العالي كما نقول فرادى أو مجوزين.. وكذلك المشاكلة والمطاليق المواظبين سنوياً على زيارة مسجد الرسول جماعة من.. الركوب.. جمع ركب.. وهي الجماعة التي تسافر للمدينة للزيارة على ظهور الحمير..

وطريقة هول الليل المعروفة هي تعرضه للسائر في البر ليلاً وبالليالي المظلمة والتي لا قمر ولا بدر فيها.. حيث يبدو من بعيد وهو يحمل فانوساً يتراءى نوره لعين السائر فيستبشر أول الأمر به لاعتقاده أنه ضوء الضاحية أو القرية أو القهوة أو المكان الذي يقصده.. فيجد في السير

وعينه معلقة لا تنحرف عن نور فانوس هول الليل الذي يأخذ في التنقل بالتدريج من جهة لأخرى.. وبتفاوت في البعد مرة.. وفي القرب مرات من عين الناظر ليتلاعب به وبأعصابه كما شاء تمهيداً لوقوع الرعب الأكبر في قلبه..

تلك هي القاعدة الأساسية لطريقة هول الليل ـ أما أسلوبها العام فإنه بعد أن يخايل فريسته بنور فانوسه طويلاً ـ يبدو أخيراً لعين المتتبع لنور الفانوس عملاقاً طويلاً له ساقان مرتفعتان إلى أعلى الجو.. وكذلك يدان طويلتان طولاً غير معقول اطلاقاً.. وفي آخر اليد اليمنى يبدو الفانوس السحري في اشكال خيالية بعيدة عن التصديق ـ أما إذا تجرأ من تعرض لمداعبات هول الليل فرفع رأسه إلى أعلى ومد رقبته إلى الفضاء الجوي العالي فيجد وجهاً غريب الشكل ـ مشوهاً مفزعاً لا يمكن للناظر إليه مرة أن يكرر نظرته إليه حيث إما أن يكون قد سقط مغشياً عليه مما رآه ومن الصرخات المدوية التي يبدأ هول الليل في إرسالها من شدقه الواسع الضخم ـ أو أن يكون قد أغمض عينيه وتولى هارباً متخبطاً في البراري إلى حيث تسوقه قدماه حتى يسفرالصبح.. أو حتى يذهب عنه هول الليل بعد أن يكون قد تلا المرء لهول الليل كل ما يحفظه من الآيات القرآنية ـ وآية الكرسي بصفة خاصة..

وضحايا هول الليل من أهالي جدة في عهد الظلمات.. وفشو الأمية. وقوة الاعتقاد في الأساطير كثيرة ـ وحين أخذ عددهم في الارتفاع.. وأضرب الكثيرون منهم عن الطلوع مع بشكاتهم إلى مربعة الهندي في الكندره ـ أو إلى مربعة المشاط قرب القوزين ـ أو إلى مربعة السقاف بالضغاري حيث يقوم الآن أوتيل قصر الكندره مكانها.. اجتمع

رؤساء البشاك ـ والقويمين. ومن ضمنهم القدامى من أمثال الدرويشيين درويش سندي ـ ودرويش كيال. حامد عزايه ـ وسليمان أبو داوود، والرقام ومن لف العمة لفهم.. والشباب أيامها من أمثال الشيخ عبد الرزاق عجلان وحسين أصفهاني ـ وبن زقر ـ وأحمد عتيبي.. وتداولوا في أمر هول الليل الذي سيحرم الجميع من السمرات والسهرات خارج جدة.. وانتهوا إلى تقرير الآتي:

(١) اجتهاد كل فرد من أفراد البشكة في الطلوع لمحل القيلات والمبات قبل غروب الشمس.

(٢) أن يتواعد كل شخصين أو أكثر للطلوع سوية ـ للإئتناس ببعضهم.

(٣) أما المنشغلون بأعمالهم والذين لا يتمكنون من الخروج لوجهتهم خارج السور حيث تكون البشكة فيتحتم عليهم شراء أتاريك اليد الصغيرة ـ أم البطاريات.

(٤) اصطحاب كل فرد من أفراد البشكه بصورة عامة مصحفاً صغيراً ـ أو على الأقل حمله إما جزء عم ـ أو جزء تبارك ـ حتى ولو لم يكن قارئاً ـ أو فاكاً للحرف.

(٥) وجود الشواحط ـ أو الأشوان ـ أو القطل ـ أو المشاعيب.. وكذلك المطاوي ـ والسكاكين الصغيرة الحجم مع افراد البشكه من الأهمية بمكان..

(٦) ضرورة رفع الصوت ممن يقع فريسة لهول الليل والصراخ باسم رئيس البشكة.. أو القويم للإشعار عن محل وجوده مكوماً ـ أو تائهاً لإجراء الإسعاف اللازم له.

وقد قام بالبصم بالإبهام أو بالخنصر أو بالبنصر أو بوضع المهر ـ أو بالأختام كافة المجتمعين بعد ما رددوا جميعاً.. كلنا فيها ـ والراجع في كلامو ـ مرة!!

.. وأتذكر وأنا صغير أن من ضحايا هول الليل رغم تقدم الدنيا أيامها ـ أخي وشقيقي الأكبر يوسف قنديل ـ فقد كان مغرماً هو وقريبنا علي عبيد وهما شابان قد خط شارب كل منهما من أيام أو أسابيع بالطرب إلى المجسات.. واقتضى هذا الغرام والشغف بالطرب أن استجابا دون علم الوالد لحفلة طرب ليلية خاصة يقيمها رائد التقاسيم على العود الشيخ سعيد زقزوق شيخ الخياطين بجدة في صندقته الخشبية في الضفاري.. وهي قطعة من الخلاء مليئة بحفر المياه المكوّنة من الأمطار يشرب منها أهل جدة ضمن ما يشربون أيامها من مياه الصهاريج.. والعسيلا.. والكنداسه.. وموقعها حالياً في المنطقة المجاورة والمحيطة بأوتيل الكندرة حالياً.. وكان تخت الطرب مكوّناً من السادة.. رضا أمين سراج السمكري وصاحب دكان الشيش بالحراج ـ والكاظا.. التكروني الأعرج الزقزوقي والذي انتهى به المطاف بإذاعة روما أيام الحرب الثانية.

وبعد أن انتهت حفلة.. يليش يليش.. واقتضى الأمر عودتهما للبيت بجدة من الباب الصغير المجاور لباب مكة الكبير تعرض لهما الأسطوري الكبير هول الليل بفانوسه الذي ظن كل منهما أنه نور باب مكة.. ثم لما طال المشوار حسب كل منهما أنه نور قهوة أحمد طوال الكائنة أمام باب جديد.. ثم أعتقدا أنه ولا شك أنه نور سقالة الإنكليز التي كانت تقع على لسان بحر الطين.. وأخيراً عرفا أنهما تائهان.. وإن المتسبب في ضياعهما هو هول الليل وأشفقا أن يتمادى في تلاعبه بأعصابهما أكثر فأكثر

إلى أن يبدو لهما في شكله المرعب.. فصرخ علي عبيد بأعلى صوته ـ الحقونا ـ الحقونا..

هنالك برز لهما أحد ساكني الرويس وهو صياد من اصحاب القوارب الصغيرة التي يسمونها «الهواري» وكان في طريقه للبحر لصيد الأسماك.. ودلهما على طريق جدة حين بدأ نور الصباح.. وصل أخي للبيت ليأخذ دشاً من الوالد على مرأى من الجميع.. ومني أنا بالذات حيث سمعت اسم هول الليل لأول مرة!!

كما أن من ضحايا هول الليل أيضاً من الجماعات.. ركب الشيخ عبد الوهاب حماد.. وموجز القصة أنه بعد أكثر من أسبوع دار فيه «المزهد» يرغب الناس في زيارة مسجد الرسول والالتحاف بركب حماد.. خرج الركب بهم.. وكان عدد أفراده أكثر من خمسين رجلاً وبعض الغلمان.. وقد حدثني «المغيني»وكان صغير السن صبياً في الركب أن هول الليل خايلهم أكثر من مرة.. وأن بعض الأفراد وهم من مشاكلة ومطاليق حارة الشام قد أصيبوا من «الفجعة» بإصابات مختلفة.. فالواد «البتره» لازمته «التهتهة» في كلامه لآخر أيام حياته.. وأن الواد «أبو قورة» أصيب بالإسهال الدائم «الدوسنطاريا» وأنه هو شخصياً أصيب بلوحة في رقبته لم يشف منها رغم الكي المتواصل بالسكينة المحماة في النار.

وبمناسبة البرقية التي وصلت لجريدة عكاظ من السيد منصور الحارثي «من مستوره» من أسبوع والتي يبدي فيها إعجابه بالشعبيات ويطلب شمولها لمدن المملكة.. لا ننسى ما حدث لركب الحماد هذا.. فقد ذكر المغيني أن الركب قد تعرض لمعاكسة شديدة ـ ولمداعبة ثقيلة من هول الليل قرب «مستوره» الأم حتى إذا أدرك أفراده الرعب والهول..

وبعد أن خرج الواد «صنقور» من صوابه كعاداته وسحب الفرد أبو سته وأطلقه صوب هول الليل لإطفاء فانوسه المخادع برزت لهم في عتمة الليل مولدة سوداء بلون الليل صائحة بهم من ناحية الضلع الأيمن القائم على الطريق.. تراكم غلطانين.. ما معاكم جادة.. الدرب ما هو هينا.. تراه هناك في الضلع الأيسر.. لا يغشكم هول الليل ـ وتراها معاكم «مستورة» فانحرف الركب.. وكان الزمن قريباً من الفجر.. وأخذ طريقه الصحيح وودع الركب المولدة بالدعاء.. والهتاف ثلاثاً.. تراها مستورة. يعيال.. مستورة ـ مستورة ـ ويقال إنه منذ تلك الليلة أصبح الموقع الواقع بين الضلعين المؤديين إلى مستوره الأم ـ أو الحالية تسمى كذلك.. مستورة!!

وعلى أساس ما سبق ـ فرب فضولي شديد الفضول يتساءل.. ما هو السبب أو الدافع المحرك لهول الليل لأعماله هذه التي يفعلها لكل سائر في الليل البهيم خارج المدن؟ والجواب على هذا السؤال الوجيه رغم صفة الفضول فيه هو تعليل المرحوم الشيخ السبياني جد جد الابن محمد سبياني الأستاذ لمدة وجيزة بمدرسة الفلاح.. وأحد تلامذتنا القدماء فيها.. ويقول هذا التعليل..

«إن الجن طائفة معترف بها قبل كل شيء.. رغم أننا لا نراهم دائماً بأعيننا.. وبالأخص في النهار. أو في النور أياً كان سواء كان نور لمبة.. أو فانوس ـ أو قمريه ـ وإن المدعو هول الليل كان مغرماً في شبابه بفتاة جنية من طائفته ـ وأن هذه البنت الجنية هجرته حين عشقت من طرف واحد أحد أبناء الإنس ـ والسبياني الجد يعني نفسه بهذا. وإنها بمرأى من هول الليل تزيت في إحدى الليالي بصورة قطة سوداء..

ودخلت بيت عاشقها ورابطت تحت الكرويته تنونو باستمرار والنونوة من طرفها كانت بمثابة شكوى صبابتها وحبها ـ ولكن أم المعشوق الأنسي التي لا تعرف لغة الحب في نطق البساس أزعجها الأمر.. فطلبت من ابنها البحث عن القطة.. وبالعثور عليها وإخراجها من تحت الكرويته أمرته بضربها برأس المكنسة.. وإن القطة اعتبرت ذلك من عاشقها مداعبة أنسية فازدادت نونوتها.. هنالك أمرته الأم بقذفها من النافذة.. ففعل طاعة لوالدته ـ ويا ليته لم يفعل.. فقد وقعت البسة على حجر صلب فماتت.. رغم أن للقطط سبعة أرواح»!!

هنالك حلف هول الليل أنه سينتقم من البني آدم خارج الجدران.. وهجر مدينة جدة ولازم الخلاء لاصطياد السبياني الذي كان يزور خطيبته الأنسية معظم الليالي في الكندرة.. وبالتالي لمعاكسة كل من يتعدى السور.. بالإضافة إلى أنه من تلك الليلة أصبح كل الناس لا يجرؤون على ضرب أو إيذاء أو قذف أية قطة سوداء تحسباً للثأر من جماعة.. بسم الله.. كما تركّز الاعتقاد بأن البسة السوداء غالباً ما تكون من هذه الطائفة.. ولا يزال هذا الاعتقاد سائداً حتى الآن!!

ذلك هو السبب الجوهري في معاداة هول الليل للإنس.. وفي هجره للبلدة ـ وفي تمرده الدائم لكل من تعدى السور.. ثم زاد في رقعة نفوذه فشمل الخلاء أياً كان موضعه.. حتى اكتسب شهرته الطويلة العريضة.. وأمسى.. ولم يصبح.. رمزاً لإرهاب الناس.. إلى أن امتد صيته هذا.. فدخل.. ويا للغرابة ويا للعجب.. دنيا الأدب ـ وعالم الشعر على الخصوص.

فانتهز المرحوم حمزة شحاته هذه الفرصة.. وابتدأ يلج باب النقد

بهذا الاسم في أوائل الخمسينيات ولهذا الأمر حديث شيق.

.. من أول يوم من مطلع العام الهجري عدد ٥٥ بعد الثلثمائة والألف استلمت رئاسة تحرير جريدة صوت الحجاز من نخبة الشبان المحررين لها قبلي وهم الأساتذة محمد حسن عواد ـ محمد حسن فقي ـ عبد الوهاب آشي.. وانتقلت فعلاً من مدرسة الفلاح بجدة إلى مقر الجريدة كرئيس للتحرير.. زميلاً لزميلي في الروشان المطل على زقاق الشبيكة مدير الاشتراكات بها الشيخ أحمد السباعي.

وابتدأت بعد الأعداد الأولى في إحداث حدث أكبر بعد الأحداث الصغرى ـ وفاتحت رفيق الدرب في الحياة المرحوم حمزة شحاته في تأسيس النقد الأدبي لما كان ينشر بحساب ودون حساب من مقالات وأبحاث وشعر.. وبعد محاورة ومداورة ومداولات قبل حمزة أن يكتب في عمود خاص من الجريدة ـ واشترط أن يجاري الموضة الشائعة حينذاك وهي الرمز لاسمه بتوقيع يختاره مثلما يفعل الأساتذة. س.ع. ـ الصامت ـ هو أحدهم إلى آخر القائمة المعروفة بالتواقيع الرمزية. فقبلت ذلك منه.

وجاء أول مقال له أخذته منه باليد رغم معارضة الأب عزيز الذي كان يكره التواقيع بغير الاسم الصريح!! في مكتب شركة التوفير والاقتصاد التي كان مقرها في بيت باناجه بمكة المكرمة والمطل على الصفا قديماً والذي هدم ضمن ما هدم في حينه.. وبعد أن طالعت المقال فوجئت في آخره بهذا التوقيع «هول الليل» وبالمباسطة الأحمدية ـ والتفاهم الأخوي ظهر أن اختيار المرحوم حمزة شحاته لاسم هول الليل إنما يرجع لاعتبارات كثيرة جداً أهمها أن البطل الأسطوري هول الليل له في تاريخنا الشعبي اسم شائع مذاع ومخيف ـ وأن الرجل.. وإن كان جنياً أو عفريتاً

من جماعة «بسم الله. بسم الله». . إلا أنه ذو مبدأ واحد لا يحيد عنه ـ وكما أن هول الليل قد فرض على المحتمين بالجدران في بيوتهم ـ وداخل سور المدينة ألا يتخطوا الحدود فإنه ـ أي حمزة ـ سوف يؤدي هذا الدور في دنيا الأدب وفي عالم الشعر بالذات.

ونظراً لأن الأمانة الأدبية تمنع المجاملات الشخصية ـ ومع أن أخي الأستاذ عباس حلواني صديق عزيز ـ فلا بأس من الإلمام بطرف من أطراف المعركة الأدبِيَة الشعرية المعروفة بمعركة «هول الليل». . وبداية الموضوع هي أن الأخ الشاعر الحلواني نشر قصيدة له يخاطب فيها محبوبته بقوله «أنت أحلى من أهل باريس أنت». وهنا تصدى لها وله هول الليل بنقد عنيف وحاد ـ وقد دخل في الأمر مدافعاً عن الحلواني الدكتور الأديب «حسني الطاهر» فكتب مقاله الأول ثم مقالاته التالية بتوقيع «سهران». كما اشترك سواه ـ وقد حمى وطيس النقد بين الحلواني وسهران وسواهما من جهة ـ وهول الليل من جهة أخرى. . حتى انتهت المعركة أخيراً بطلب إيقافها من معالي المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان رئيس شركة التوفير والاقتصاد التي تتبع لها جريدة صوت الحجاز تجارياً قبل أن تندرج كعمل من أعمال شركة الطبع والنشر!!

من هذا. . ودلائله موجودة محفوظة في أعداد صوت الحجاز لعام ٥٥ أو ٥٦ هجرية على الأرجح دخل هول الليل دنيانا الأدبية. . ناشراً الفزع والرهبة والرعب بعد أن تجاوز مجالاته في الخليان والبراري وأطراف القرى والضواحي من مدينة جدة وأخصها مشارف الكندرة. . والرويسين الأعلى والأدنى. . وبني مالك ـ والنزلة اليمانية. والثعالبة. . باسطاً نفوذه فيما بعد حتى لما بعد أبيار علي بالمدينة المنورة. . ولأعالي الفرع بالشفا وجبل قرنيت. .

هذا.. وقد اشتهر هول الليل ـ أيام وجوده الذهبي.. بأنه ذو مزاج شعري فهو يحب البدر في تمامه.. ويعشق الليالي القمراء ولذلك فقد حرم على نفسه القيام بأي نشاط عفريتي أو جني فيها حيث يعكف على دراسة الشعر وإلقائه في وادي عبقر الذي يصل إليه من مقره في «الضفاري» بشقحة إن أسرع ـ وبشقحتين إن أبطأ..

كما اشتهر رغم المعروف عن نباتية طائفة بغرامه الشديد بالتهام الرخال ـ جمع رخله وهي النعجة ـ مع كراهيته المطلقة للطليان.. وقد ظهر ذلك حين اشتكى جميع البدوان في كافة الخليان باختفاء رخالهم ـ أي نعاجهم ـ في الليالي القمراء..

وفي هذا الباب يقول زميلنا الفلاحي في الدراسة وفي الأستاذية بعدها المرحوم المتوفي في عز شبابه وعمره لا يتجاوز العشرين من عمر الزهور أثر إصابته بالجدري وعزل أهله له في عشة نائية بالكندرة ـ مقر العائلة.. الشاعر الكندري حامد أبو تومان:

علامك.. يا أبا الهول المباح
إذا القمراء لاحت في الضواحي؟
سطوت على الرخال.. وأنت قرم
طويل الهام.. مغرود الجناح؟
وسبت ذوي القرون السود طالت
من الطليان.. دون أذى متاح؟
أتلك دعابة أيضاً؟؟ ولون
فريد.. بين أنواع المزاح؟

* * *

أهـول الـلـيـل.. حـسـبـك.. إن هـذا
يـسـبـب أزمـة بـيـن الأضـاحـي!!
فـمـن لـطـلـيـنـا.. إن رام لـيـلاً
مـعـانـقـة الـرخـال.. عـلـى الـبـطـاح؟
فـبـعـبـع وحـده.. وأتـى لـعـنـدي
لـيـشـكـو صـاحـبـاً.. يـشـكـو لـصـاح!!
فـبـاسـم الـشـعـر عـشـت لـه مـحـبـاً
دع الـرخـلات.. تـسـرح فـي الـمـراح!!
وسـيـبـهـا لأجـلـي.. إن هـذا
رجـاء.. جـاك.. مـن ولـد فـلاحـي!!

.. وأخيراً فذلكم هو الأسطوري الشعبي الكبير العملاق.. هول الليل.. بكل معاكساته ـ ومداعباته.. خال البنت الجنية «الدجيرة» وشقيق والدتها الست «الهمية» ورحيم «البعبع» زوج أخته.

ولقد نزح من مدينة جدة بعد أن توفيت عشيقته العفريته الصغيرة أثر قذفها بيد معشوقها الأنسي من الطاقة ووقوعها على أضلاعها فوق حجر منقبي كبير.. واستقر متنقلاً هائماً في الخلا الخالي والرب العالي بين البراري والبوادي وإن كان قد اتخذ له مقراً شتوياً في الضفاري التي أصبحت اليوم مزدحمة بالفيللات والعمارات والبنايات الحديثة ـ وأهمها فندق قصر الكندره. كما اتخذ له مقراً صيفياً على طرف البحر في نهاية الرويس الأعلى.

ويذكر من رآه عياناً أنه في طول عنج ابن عنق إن لم يزد عليه ـ وأنه صاحب أطول ساقين منفرجتين باستمرار.. وإن له وجهاً يكره الله والناس لقاءه ـ وعينين تقدحان بالشرر الذي تكفي شرارة واحدة منه لحرق أعتى الصخور.. أما قهقهته فتفوق صوت الرعد.. كما أن دموعه حين تنحدر لدى ذكرى حبيبته تزيد عن كميات المطر الهاطلة سنوياً في أغزر المواسم المطرية.

أما سبب تسميته باسم شهرته المستفيضة.. هول الليل.. فيعود إلى أنه لم يظهر أبداً ـ أبداً في أي نهار.. ولا في أية ليلة مقمرة.. وإلى أن مخايلاته بفانوسه لتضليل العابرين تسبب أفظع هول يلقاه البنو آدميين..

ولقد بقي اسم هول الليل حتى الآن يطلق على كل طويل جسيم مفزع. فيا طالما ترددت وتتردد على الألسنة جملة «شوف يخويا الراجل اللي زي هول الليل».. أو «هو اشبو عامل كدا زي هول الليل» أو «تروح من هنا ـ وإلا أزهم لك هول الليل» إلى آخر تلك الجمل الموروثة والتي بدأت في الانقراض..

أما سبب وفاة هول الليل المباشرة فهو قيام الحكومة السنية بإدخال الكهرباء وإزالة سور جدة.. وتشجيع العمران.. وردم حفر الماء والصهاريج القديمة ـ وتعبيد وسفلتة الشوارع.. وفتح المدارس حتى في الضواحي والقرى الصغيرة ـ وإيجاد شرطة «النجدة» وإعطائها رقم تسعات ٩٩٩ ـ والإسعاف ورقمها ٩٧ والإطفاء ورقمها ٩٨ والاستعلامات ورقمها اللي ما يرد إلا في النادر ٩٥ مع تخصيص خمسة أرقام للكهرباء وهي من الشمال لليمين ..٢٣٠٤٤ وبذلك كله أو بعضه لم يجد هول الليل مكاناً يندس أو يتخشخش فيه..

وكان أهم ما سبب لهول الليل السكتة القلبية حسب تقريرنا الطبي تنقل الناس الآن حتى في مشاويرهم القصيرة جداً بالسيارات بدلاً من السير على الأقدام ـ ولو لدقائق معدودات..

وأخيراً.. لا آخراً.. انتقال جريدة عكاظ إلى شارع الميناء.. وتخصيصها للشعبيات ـ بما فيها الأساطير القديمة.. ركناً تسلط منه الحروف والكلمات.. وتزقلها جهاراً نهاراً على رؤوس مصادر الرعب القديمة من أمثال الدجيره.. والهمية ـ والبعبع.. عائلة فقيد الجهالة والخرافات والظلام بكل ما فيه المدعو الجني.. ذاك اللي كانوا يسمونه هول الليل!!

وبموجب ذلك. فقد استطاعت عكاظ الجريدة ـ لا المؤسسة ـ أن تنفرد كعاداتها بالحصول على المقطوعة الغلبانة اللي كانت عايشه لوحدها في داخل علبة من التنك.. وأن تنتزعها بقوة ذراعها من ذراع عفريت العلبة.. وهذه محتوياتها:

إلى أين.. هول الليل.. غاد وسائر
وقد شيدت وسط الضفاري العمائر؟

وشعشع نور الكهرباء.. مبدداً
ظلام ليالٍ.. ما عليها ستائر..

فقل لبشاك الأمس قوموا تفرجوا
على جدة الكبرى.. بناها الأكابر..

فجدة قد أمست يخوي.. وأصبحت
عروساً بحق.. قد جلتها النواظر..

فليس لهول الليل بين حدودها
وحول ضواحيها.. خيال.. وخاطر..
ففانوسه السحري بات مكشراً
طفته من الجيل الجديد البصائر..
وساقاه.. والوجه القبيح.. وطوله
مع العرض قد دارت عليه الدوائر..
فسار بنص الليل هفتان.. دائخاً
إلى حيث ضمته ـ هناك ـ المقابر!

* * *

تعال إلينا اليوم إن كنت شاطراً
وإن كنت جنياً صحيحاً.. يكابر..
لتبقى لدينا تريقاء.. وفرجة
ومصخرة.. يا اللّه.. تعال.. يشاطر!!

حَبَمْبَا . .

تلقيت خلال الأسبوع الماضي بعض المكالمات وبعض الرسائل من المطرين المادحين ـ جزاهم الله خيراً . . للشعبيات التي يقول أحدهم عنها أنه مواظب يومياً على قراءتها من أول حرف نثري حتى آخر شطر شعري . . فشكراً جزيلاً لهم على إطرائهم ومدحهم اللذين يدخلان في حدود القاعدة الذهبية التي قننها صديق الكل سيادة الأستاذ السيد علي حافظ في عجز بيته القائل «لكنما القصد تنشيط الجماهير» .

ولقد كان في طليعة هؤلاء الكاتبين إلينا عن الشعبيات سيادة الأخ الأستاذ محمد علي خزندار أحد كبار موظفي وزارة المالية العبدلله السليمانية السابقين والمتقاعدين ووالد العزيز عليه وعلينا الأستاذ حسن خزندار مدير إذاعة جدة . وفي ما عدا ما يراه ويطلبه سيادته من الكتابة عن العادات والتقاليد والأساطير الشعبية فإنه يتلاقى مع الآخرين في طلبه وطلبهم الكتابة عن حبمبا!!

ولعلّه من المصادفات العجيبة والمؤكدة لتوارد الخواطر أنني كنت قبل ورود هذه الرسالة قد انتهيت تقريباً من تحرير سيرة الآنسة «حبمبا» . وأعجب من ذلك كله . . بزمان . . كما يقولون . . وهذا لا يحصل إلا بنسبة ٥٪ على أكبر نسبة مئوية تقديرية إنني قابلت أثناء هذه الرسائل

والمكالمات العم.. أبو راصين.. كما كنا نسميه.

والعم.. أبو راصين أحد الشخصيات الشعبية الظريفة جداً.. وقد أخذني حين قابلني.. أكرمه الله.. بالأحضان حضناً وراء حضن وبالسلام «عُرْبَه» فماً لفم ودقناً لدقن.. وشنباً لشنب.. وبوسه ورا بوسه.. وسلمه قفا سلمه.. والله زي ما باقول لك كدا.. وعندما قبلني أو حضنني على الأصح تشهدت في سري ثلاثاً لأن المذكور قد أزعجني بصورة عنيفة.. فإن هذه المقابلة والحفاوة رغم حرارة اللقاء فيها وشرح كثرة الأشواق كانت مصدر عذاب مرير لمن كان في مثل سني وسن العم أبو راصين إذ إن للمذكور شنباً تشبه شعراته رؤوس الدبابيس ـ في حين أنني بسبب أكوم الذي استلبشني أعيش في حكم الجرود من ناحيتي الذقن والشارب على السواء.

ولا أطيل عليكم أكثر مما أطلت.. فبعد أن أخذ العم أبو راصين.. بعد أن أخذ غائلته مني راح يكيل الثناء على واجبنا الذي قمنا به نحو الأحبة من شخصياتنا الشعبية عموماً.. وبالذات نحو الجنس اللطيف مثيلات السيدات العزيزات بسباسه.. وبيبي زينب وظريفة.. وختم حديثه لي بقوله.. والله يا سيدي أحمد ما دام أننا جبنا سيرة العتات الشعبيات.. فترى لم ممكن أبداً.. أبداً أنك تنسى المظمظيل «حبمبا» خصوصاً وأنها ما كانت تعرف لها أباً ولا أماً.. وأنها كمان عاشت زي الكادي ما يادي.. فايش قلت؟ توعدني؟ كلام رجال؟ تكتب عنها؟ انتهى كلام العم أبو راسين!!

.. وهنا لم أتمالك نفسي استغراباً من هذه المصادفة العجيبة التي يتلاقى بها كاتبو الرسائل وأصحاب المكالمات وأنا في موضوع واحد.. فهتفت بالعم

أبو راصين قائلاً اطمئن.. فستقرأ قريباً عن حبمبا وفي سراها.. ولكن على شرط واحد هو أن تعتقني عتق الله رقبتك من تكرار الأخذ بالحضن.. والسلام العربة حقك دا.. فضحك وسلم علي مودعاً إياي من بعيد لبعيد بقوله.. في أمان الله. ولم نكد نتفارق حتى صقعته ردعاً له ولأمثاله ممن يسرفون في الأخذ بالحضن.. وفي الإغراق في السلام عربه.. وتشويك عباد الله بشعر الشارب.. والكرداشة.. أي الذقن.

بالآتي ـ قل لمن قابل الأحبة ـ يوماً
بعد طول الغياب بالأبواز..
سلمة بعد سلمة.. في عناق
كلحام بالنار بعد القاز..
يا حبيبي يا ابن الحلال بلاشي
من تفانين حبك الوخاز..
يعني ألاّ تضمني وسط حضن
عاصراً جثتي كعصر الكراز؟
نازلاً فيَّ للشفايف مصًّا
مثل مص الليمون.. بين اهتزاز..
مش كفايا.. تقول أهلاً وسهلاً
من التقاء الأخطضان بالأبزاز..
بين بوسا أو اثنتين.. يسيدي
زي نقر العصفور للأمواز..
رب كرداشة تُسبِّب وخزاً
فاق طظ الدبوس في أوخاز..

بـطـلـوهـا!! أو أنـنـا سـوف نـشـكـو..

أمـركـم.. لـلـنـقـيـب.. لـلـهـزاز!!

ومعذرة عن الإطالة والاستطراد وإلى سيرة الآنسة حبمبا..

.. وقبل أن نخش في الموضوع.. فأولاً أن اسم حبمبا.. ينطق بطريقتين أولاها.. حبمبه.. بالهاء الساكنة نيابة عن الأصل الأصيل لها وهو التاء المربوطة وثانيتهما.. حبمبا.. بالألف المقصورة وقد اخترنا الطريقة الثانية للتلذذ بالمط والإشباع في النطق به.. لغرامنا ولعشقنا لأسلوب المط في كل شيء.. وللناس فيما يعشقون مذاهب..

وثانياً.. فلقد صدق العم أبو راصين فيما رآه من ضرورة تسجيل وسرد سيرة الآنسة حبمبا.. فإنها بشهادة الجميع عاشت وماتت.. ولم تترك أية اسية لها في طول وعرض مدينة جدة.. بل لقد كانت رحمها الله لا تُرى إلا والابتسامة البلهاء مطبوعة على شفتيها دائماً.. كأنما هي.. أي الابتسامة البلهاء لزقة أميركانية. أو ختم باللك الأحمر فلا يمكن والحالة هذه أن يزيلها الحك الخفيف بما نسميه نحن في بلادنا بالمساحة.. بتشديد السين.. أي الأستيكه كما يسمونها أبناء النيل كما لا يمكن أن يمحوها كذلك الغسيل بالماء الدافئ ممزوجاً بالصابون النابلسي الأصلي..

ولقد كان أول تعارف بين حبمبا الآنسة وبين جده المدينة أي أهلها بأسلوب القرآن الكريم وأسأل القرية ـ أي أهلها.. حين تحدث الناس كلهم أو بعضهم عن فدائيتها الصامتة في معركة السباق الزمني بين السيارة المرسيدس وبين الطفل الذي انفلت من ذراع أبيه وكاد أن يصبح ضحية في معركة السباق الزمني الرهيب دون وجود مباراة أو ميدان سباق نتيجة

السرعة المجنونة من جهة وإهمال أولياء الأمور من جهة أخرى. وهي المشكلة الثنائية التي يعاني منها رجال المرور حتى اليوم.

وخلاصة حديث المعركة التاريخية هذه كما ورد على لسان المتحدثين به في كل مجالس الجوكر والكيرم من قبل. والصن من بعد.. هي أنماط من روايات شتى مختلفة التفصيل مع اتفاق تام في الجوهر والمضمون هو ـ في صباح يوم الأحد السابق لما قبله من اليوم السابع عشر من الشهر الجاري بسرعة وراء الشهر القادم بسرعة أيضاً من العام الهجري المنتهي برقم ٤٣ بعد الألف والثلثمائة.. كان المدعو عيسى والشهير باسم.. أبو المحافيظ.. متجهاً مع محافيظه الذكور الخمسة إلى المدارس لإيداع كل.. طرد.. منهم في مدرسته الخاصة وقد بلغ الحرص بالعم عيسى الشهير بأبو المحافيظ وهو في طريقه للمدارس لإيداع محافيظه الخمسة بها أنه كان يسير ملاصقاً للجدار في الشارع العريض الطويل والذي لم يكتب له الحظ الحسن لدى البلدية فيسمهد أو يسفلت حتى تاريخه أعلاه وأدناه.. وقد حمل المذكور اثنين من المحافيظ على كتفيه وهما برهوم.. وسلامه.. وشبك يديه اليمنى واليسرى بالعزيزين عليه طاهر.. ويحيى.. وساق أمامه أكبر محافيظه وهو المسمى عبدو.. والمدلل باسم ابدو.. بالاقتصاد على إبدال العين بالألف المهموزة.. وظل الوالد المذكور العم عيسى يسير الهوينا كعادته اليومية مداعباً الأولاد.. متجنباً الانحراف يميناً أو شمالاً إلا عند اللزوم للانتقال.. وبعد التلفت الكافي الشافي بقدرة العزيز العليم من أي مكروه..

وفي لحظة.. لحظة حاسمة فعلاً في تاريخ العائلة العيسوية.. انفلت الولد أبدو.. من أمام أبيه ليلتقط بسرعة ما ظنه قرشاً ملقى في وسط

الشارع.. ولم يكد يدنو من اللقطة غير الثمينة حتى أقبلت سيارة مرسيدس كانت تسير بأقصى ما تعطيه الطاقة للدركسيون مما حتم قواماً حدوث الوفاة السريعة حيث لم يستطع السائق إلا أن يضع قدمه على الفرامل بحركة عفوية أتوماتيكية.. وإلا أن يغمض في اللحظة ذاتها عينيه.. تماماً.. تماماً كما فعل والد الطفل المذهول والذي شلت المفاجأة حركته هو الآخر.. فتجمد على الرصيف.. كما تجمد السائق على مقعد القيادة.. ولكن!!

ولكن.. وما أعذب وأحلى وأجمل كلمة «ولكن» هذه في هذا الموضع الحساس من الشارع غير المسمهد أو المسفلت.. ولكن لدهشة السائق والوالد أنهما ما كادا يفتحان أعينها حتى رأيا بأم وأب وجد عيونهما الأربعة المحفوظ.. أبدو.. تحتضنه فتاة في الثلاثين ربيعاً تقريباً من عمرها.. وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء كأنها لزقة أمريكانية الصنع.. أو ختم من اللك الأحمر.. وهي تمشي مشي العرايس غندرا.. متهجة نحو الوالد لتسليمه ولده أبدو.. أبدو الذي أصبح من صباح ذلك اليوم لا يعرف باسمه.. وإنما يعرف باسمه الجديد.. ولد حبمبا.. في أشهر الأقوال.. ولا عبرة ببعضها القائل في ضحك عابث.. ولد المجنونة!!

هذا ولم تستكمل الرواية الخاصة بإنقاذ الآنسة حبمبا للواد أبدو بقيتها. حيث تقول الرواية الأكثر شيوعاً أن سائق السيارة المرسيدس العائق الفائق على فرحته بنجاة الولد الذي كان موته محققاً مية في المية ـ قد سارع وفتح باب سيارته بسرعة جنونية أيضاً وذهب إلى حيث تقف الآنسة حبمبا وقدم لها بعد انحناءة تقليدية لا بأس بشكلها ورقة من ذات العشرة ريالات.. فما كان منها إلا أن زادت من ابتسامتها البلهاء.. وأعادتها إليه في صمت.. ودون انحناء. وذلك بعد أن فرصعت في وجهه وإن لم

تمرص أذنيه فكأنها تقول له: ما هكذا يا واد تسرع؟ ألا ترى محاكاة للبيت الشعري في عجزه لا في صدره القائل:

أوردهـــا ســعــد وســعــد مــشــتــمــل

مــا هــكــذا يــا ســعــد تــورد الإبــل!

أما ما كان من أمر الأب عيسى أبو المحافيظ ووالد ابدو. . فإنه إزاء ما رآه من فدائية حبمبا التي رمت أو قذفت كالقنبلة بنفسها لتحول. . بأمر من الله. . بين الولد والسيارة مضحية بذاتها لم يسعه إزاء وإزاء تصرفها المهذب مع السائق إلا أن يبادر فيزقل محافيظه بعيداً عنه حيث ألقى بالمحفوظين برهوم وسلامه من فوق كتفيه فسقطا يتدحرجان بجوار الجدار المسامت للطرف الأيسر من الشارع في مكان وجودهما مع أبيهما وبالبقعة التي لا يمكن أن نطلق عليها كلمة رصيف لعدم سفلتة الشارع وتحديد مكان المشاة فيه.

كما أنه أي الأب عيسى أبو المحافيظ. . دفع بقوة وبسرعة كذلك بكل من المحفوظين طاهر ويحيى فسقطا على الأرض يتدحرجان هما الآخران بجانب أخيهما. . متقدماً هو بسرعة وفي ذهول المنوّم تنويماً مغناطيسياً إلى الآنسة حبمبا محاولاً تقبيل يدها ـ ورا وقدام ولكنه فوجئ هو الاخر بتشبيكها يديها على صدرها في براءة وردت في إغراء. . ملقية نظرة إلى الولد. . أبدو. . الذي ابتسم لها ثم تشربط بساق أبيه ناوياً الارتقاء إلى كتفه للفرجة من فوقه إلى منقذته ومن أصبحت والدته منذ ذلك الصباح. . وفي ثوان معدودات اختفت حبمبا عن نظر الجميع كأن الأرض انشقت وابتلعتها.

هذه الحادثة بالذات هي التي كانت السبب المباشر في لفت النظر

وفي استفاقة شهرة الآنسة حبمبا أو المظمظيل على حد تعبير أبو راصين.. فسبحان واهب الشهرات لمن يستحقها بجدارة وبذكاء.. ولمن لا يستحقها إلا بمصادفة عابرة من بلاهة دعباء وعدم إدراك.

هذا.. ويؤكد الثقاة من سكان جنوب جده أن حبمبا ليست بالتأكيد وحسب شهادة كل من عمدة الثعالبة واليمن والمظلوم من مواليد جدة.. والشائع أن الألسنة وفي بطون الدوسيهات والملفات بدوائر الشرطة أن حبمبا وفدت وهي بنت مراهقة إلى مدينة جدة ذات مساء قادمة من جهة «الخمرة» تسعى على قدميها الحافيتين وكانت ترتدي فستاناً ـ أي كرتة رمادية اللون منبوشة الشعر.. تحمل على شفتيها تلك الابتسامة البلهاء التي اشتهرت بها طيلة حياتها كما تحمل بيدها اليمنى غصناً أخضر رمزاً على محبتها للسلام.. رغم أنه أثبت بالفحص الزراعي أن الغصن الأخضر هذا لم يكن غصن زيتون.. كما أنه لا توجد عليه آثار أو أثر زرق أية حمامة بيضاء ـ أو سوداء ولا كذلك أثر أية عضة تدل أنه حين انفصل عن شجرته حملته تلك الحمامة بمنقارها وطافت به داعية للمصالحة بله السلام ومعذرة لاستعمال لفظة «بله» بفتح الباء وسكون اللام وفتح الهاء وهي اسم فعل بمعنى دع وأنزل.. مثل دع التطويل ـ أو دع الاستطراد.. فقد وردت رغم إرادتنا لأننا كنا قد دعينا لمكالمة تلفونية أثناء الكتابة مع أحد المتقعرين الذين يؤاخذوننا على استعمال الكلمات البلدية الشعبية من كتاباتنا فأحببنا أن نرضيه باستعمال «بله» بدلاً من.. أخصر..

ونعود لحقيقة الغصن الأخضر الذي كان في يد الآنسة حبمبا حين وطئت قدماها أرض مدينة جدة لأول مرة.. فقد ثبت أنه من أصل شجرة «نبق» والنبق بكسر النون وسكون الباء أو فتحهما هو حمل شجرة السدر

وعندما يزهو ويحلو يسمى «حلوي» بفتح الحاء واللام وكسر الواو.. وهذا التفصيل ضروري جداً.. وبالأخص للجيل الجديد الصغير السن والذي لم ير النبق من قبل.. ولا الحلوى الذي سماه البعض منهم حين رآه قبل أيام التفاح الصغير..

شاهدنا.. للحقيقة وللتاريخ.. أن الآنسة حبمبا لم تولد أصلاً بمدينة جدة وأنها قدمت من طريق الخمرة.. منكوشة الشعر حاملة ابتسامتها البلهاء على شفتيها.. حافية القدمين.. وتحمل في يدها اليمنى غصناً أخضر ثبت أنه من أصل شجرة نبق.. وكان دخولها من باب شريف.. وهو الباب الجنوبي لجده وقد شاهدها أول دخولها منه حشد من الناس معظمهم من الأولاد صغار السن وبعض الرجال الفضوليين مصطفين بطبيعتهم على جانبي الطريق بالمصادفة..

وهكذا تكون حبمبا بدخولها ذات مساء من بوابة باب شريف القديمة والتي كانت تشبه نوعاً ما «التريومف» أي قوس النصر في بارس.. تكون حبمبا قد دخلت بذلك.. وبحادثة السيارة فيما بعد.. التاريخ من أول أبوابه الجنوبية التي صادفتها.. فسبحان مسبب الأسباب.. وكما قيل إذا ظهر السبب بطل العجب!

شعبيات ـ بهية.

.. وحبمبا.. وتلك ميزتها الكبرى.. مشاءة عظيمة الشأن. لا بالنميمة فإنها لا تفتح فمها إطلاقاً إلا حين اللزوم.. بل بالمشي أي بالسعي على قدميها طيلة النهار وجزءاً كبيراً من الليل. فأنت لا تكاد تراها في الصباح متسللة مثلاً من خرابة القلل.. وهي الخرابة التي كانت مجاورة وملاصقة لبيت الزاهد القديم. تفرك عينيها.. أو تقصع بعض

القمل في رأسها بسرعة.. حتى تراها في الضحى متسكعة حول الحراج القديم وسوق المشتمل على كل شيء عتيق ومستغني عنه.. كأنما تجد حبمبا في هذه الخردوات والأنتيكات القديمة أشباهاً حجرية لها..

أما في الظهر.. وعقب خروج الناس من صلاتهم في مسجد الحنفي ـ أو من زاوية أبو سيفين. فإنك تراها حائمة هائمة على وجهها وقدميها في سوق الندا.. وتلك عادتها الدائمة ـ تتشمم رائحة الحلبة مع السمك أو بدونه ـ وتتطلع المسكينة إلى اللحوم في قرم واشتهاء زائدين مما لا يجد معهما البائعون بداً من تقديم بعض البواقي منه إليها. فتفترش الأرض حالاً لالتهامه في نشوة والتذاذ به.. ويرد بعض المفسرين لهذه الظاهرة ـ ظاهرة شغف حبمبا باللحوم إلى عقدة نفسية ذات صلة بماضيها البعيد.. يؤكد ذلك ما رواه كل من السيدين «الأبي» بكسر الألف وتشديد الباء المكسورة أيضاً.. وهو من أشهر أصحاب الدكاكين واسمه الكامل حسن منتش والأول صاحب دكان يبيع فيه كل شيء من السكر والشاهي إلى الأبراز والدبائر والكبريت ـ والثاني لا يبيع إلا الفحم في أكياس صغيرة.. أو أكوام.. عدا القرم الكبيرة المزوية على جنب.

على كل حال.. يؤكد كل من الأبي ومنتش أن حبمبا.. ولا شك.. من أصل يمني.. وإنهما باعتبارهما يمنيين أصلاً أدرى واقعاً بتفسير ظاهرة أو عقدة حبمبا الخاصة بشغفها الزائد الحد باللحوم.. ويضيفان أنهما من بعض الكلمات المتناثرة عفواً من فم حبمبا عرفا أنها كانت لها جدة ربتها ونشأتها على أكل اللحم والغرام به.

وبالمناسبة فإن هذا الجانب من سوق الندا لا يزال موجوداً ومحتفظاً بصفة عامة بطابعه القديم.. ولقد كنا أنا والأخوان عمر عبد ربه وعبد

الحميد مطر من رواده ومن المواظبين على الجلوس به في دكان صديقنا رفيق العمر الشيخ محمد سعيد عتيبي الذي كان وثيق الصلة القديمة بكل من الأبي ومنتش..

كما وبالنسبة لحبمبا.. فإنك حتماً وابتداءً من بعد المغرب ولهزيع من الليل تراها في سوق العلوي تتجول غادية رائحة أمام دكاكين الصمدي وعم قاسم.. وحول مباسط يوسف أمير الفوال والمشكل الحاروي العتيد ـ والبغاشا المطبقاني ليلاً.. واللقيمات والزلابيا صباحاً.. وكلهم يرعون حبمبا ويجودون عليها بفضلات الزبائن من الآكلين لديهم ـ حيث تقيم أودها بتلك اللقيمات المتنوعة والخاطفة. منتظرة ابتداء العم الموصلي تلاوة سيرة عنتر في المقهى.. متحاشية ما أمكن معاكسات الأولاد النشامى الشبان من أمثال الفتاق ـ والصعيدي ـ وولد الشيخ عبد الصمد عمدة اليمن القديم محمود والد العمدة الحالي.. هذا وقد كانت من عادات حبمبا الثابتة. وبعد فراغها من التجول بالعلوي ـ وبالعيدروس كذلك تعود لتقضي وقتاً من الليل في دكة نصيف المجاورة لبيت نصيف التاريخي الحالي، والتي كانت في كل رمضان مصلى خاصاً للعشاء وللتراويح وكان والد كاتب هذه السطور الإمام الرمضاني في كل عام مضى.. وراح واللي راح راح يقلبي.. شكوتك لله!!

كما كان من عادات حبمبا.. وهي أميز وأسمى عاداتها.. كراهيتها المطلقة ونفورها من النقود كما يلاحذ ذلك طبعاً من رفضها لما قدمه لها سائق المرسيدس والذي كاد أن يودي بحياة الولد ـ أبدو.. فلقد أجمع الكل على أن حبمبا لا تعرف النقود.. أي أنها لا تعرف بالتالي قيمتها. فلم تمس كفاها طيلة حياتها الضائعة أية هلله أو أي قرش.. أو ريال..

ويقول خبيث معروف ومشهور بخفة دمه أن كلمة «قرش» كانت لحبمبا بمثابة البعبع.. وهذا الخبيث لا يعني بلفظة القرش هنا قطعة النقود المعروفة ـ وإنما يومئ دون إفصاح لقرش البحر ـ أو للقروش الآدميين الشبيهين به في القضم ـ وفي الابتلاع.

ومع أنه لا علينا من تعليق هذا الخبيث الظريف.. فإن من المتفق عليه أن حمبمبا معتبرة لذلك.. أي لكراهيتها للنقود ولنفورها منها ـ من الزاهدات بالفطرة في عرض الحياة الزائل.. مما سرب الاعتقاد فيها من الكثيرين.. ورأى فيها شيئاً لله ـ كما يقول بعض خواصها!! رغم تعريض وتقريق وتعليق العم أبو جنب على هذه النقطة بقوله مستهزئاً «حبمبا فيها شيء لله؟ ها؟ والله أنكم بالبركه.. دي ما تحب الفلوس عشان مرة من المرات ـ والا أقول لكم.. أنا أشلي؟ يسيدي ربك سمي الستار..» وهنا يصرخ أولئك في وجهه. أنْكِتِمْ حرام عليك.. دي أطهر وحده شفناها ـ وإن كنك رجال من جد وشارب من لبن أمك ـ قول!! فيرمقهم بنظرة ذات معاني ـ أقول؟ أقول لكم: بلاشي!!

.. أما بالنسبة لنسبة الجنون لدى الآنسة حبمبا.. فقد أجمع المؤرخون لتلك الحقبة من تاريخها في تاريخ جدة.. حين يتطرق البحث لمشاهير الشخصيات الشعبية.. أجمعوا على أن جنون الآنسة حبمبا إنما هو نوع من التفوق الذاتي الصامت ونتيجة للزهادة التامة في عروض هذه الدنيا الفانية.. والصفة الثانية ربما كانت موضع شك أو دراسة.. فكما أن تجرد المرء من كل عرض من أعراض الحياة الزائلة قد يؤدي إلى الوسواس أو الجنون فإن التكالب على الجمع وتكديس الأموال والعروض الدنيوية بأشكالها وبأنواعها وبأرقامها المخيفة المرعبة قد يؤدي كذلك إلى

الوساوس والهجرسة والهلوسة.. وكلها طرقات أو طريق يؤدي إلى أيضاً إلى الجنون المطبق أو الجنان الخفيف المتعارف على تسميته باللطف.. تلطفاً لمعناه البعيد.. وتحقيقاً للمثل العالمي القائل كل الطرق تؤدي إلى روما.. روما حقت «الاستنقلينا»!!

وعلى كلام حبمبا وصاحبنا إياه.. أي نعم.. لقد كانت حبمبا في جنونها الرايق إنما تمثل ما ذكر سابقاً.. فهي في كل حركاتها وسكناتها.. وتجوالها وتصرفاتها تشعر الناظر إليها.. أو المتتبع لخطاها ولسيرتها أنها منفصلة انفصالاً تاماً ومادياً عن عالم الأحياء.. والعقلاء.. كما يلاحظ الكل في نفس الوقت أنها كانت مثالاً صادقاً على البلاهة المتناهية.. وعلى السذاجة التي لا حد لها.. وعلى المسالمة المطلقة وتلك أبرز صفاتها المميزة.. إذ إنها لم تمد يدها قط إلى حجر من الحجارة الملقاة في الأزقة والشوارع بجدة وما أكثرها في تلك الأيام.. أيام الجراويل ـ لتقذف بها من يعاكسها.. أو من يطاردها بالصراخ بالتشنيع عليها من الصبية والغلمان.. والبزورة الذين لم يربيهم أولياء أمورهم التربية الحديثة المنصوص عليها في كتب التربية غير البدنية.. وبالأخص في الكتاب المشهور لمؤلفه الأمريكي المستر بالوهي «كيف تعامل المجانين والبلهاء؟».

ويزيد الكثيرون من معارف ودارسي حياة حبمبا.. على هواهم.. فيؤكدون أنها كانت تزيد في ابتسامتها البلهاء كلما زادها الأولاد إيذاء.. وشتيمة وصراخاً يصم الأسماع.. بصورة تنقل للذهن.. ومن غير تشبيه بالقول القائل: من ضربك على خدك الأيمن.. فأدر له خدك الأيسر.. وظهور طرف من أعراضها على هذه الآنسة العربية إقليمياً.. والمسلمة جغرافياً واعتباراً وسلوكاً ينم عن ذلك.

تلك هي الآنسة حمبا من الناحية السلوكية والنفسية.. أما فيما يختص بهيئتها وبتكوينها الجسدي.. فقد كانت حبمبا متوسطة القامة تميل إلى البدانة.. ذات قدمين مفلطحتين.. متشققتين نتيجة المشي الدائم حافية عليهما.. وفوق الأحجار والتراب الناشف.. كما كان وجهها أملس الملمس خالياً من أية علامة بارزة.. أو فارقة ولقد كان وظل وأصبح.. وما أمسى.. مكياجها الوحيد هو جمعها لشعر رأسها ورفعه إلى أعلى ثم ربطه بعد ذلك بدوبارة غليظة يرجح أنها كانت منسولة من عدلة دقيق رمي بها من قام من «الحبابة» بفتح العدلة جانباً فالتقطتها حبمبا في غفلة من العيون.. كما انحصرت زينتها النسائية.. كأنثى.. في فردة «خرص» أزرق تضعه في أذنها اليسرى.. وفردة خلخال.. دون قلاقل.. ملتصق في خنقة قدمها اليمنى.. آخر الساق.

وبعد.. فتلكم هي الآنسة.. أو المظمظيل حبمبا على حد تسمية العم أبو راصين لها.. وذلكم هو مجموع شكلها المكلبظ تقريباً.. وحيثيتها العامة التي لا تدل على مفهوم خاص لها في الغالب.. أما سبب شيوع اسمها «حبمبا» على الألسنة وإطلاقه حتى يومنا هذا.. وما بعده.. إن شاء الله.. على كل من يبلغ به البله والعبط حداً بعيداً.. فإنه يعود إلى تصرفاتها الساذجة الغبية العبيطة البلهاء.

إنها باختصار تمثل تمثيلاً دقيقاً ورائعاً المثل الشعبي القائل «لا ينطح.. لا يقول انباع..» وعليه.. فإذا سمعت من يقول لك.. أو لعدوك.. أما أنك حبمبا صحيح!! أو روح يواد. أنت «حبمبا» أنت!! فاعلم يا رعاك الله إنما يعني هذا من هذا ما سبق شرحه!!

وأخيراً.. فقد اكتشف عمدة اليمن بعد وفاة المرحومة الآنسة حبمبا

بخرابة القلل وفي عتمة الليل وعقب فضلات أكلة تسممت بها.. أن العم أبو راصين السابق ذكره كان يحمل بين صدره العريض.. وفي عينيه الطويلتين الزائغتين عاطفة صامتة من ماركة «عينك دكها.. ويدك لا تمدها» للآنسة حبمبا.. وقد ضبطه العسس في إحدى الليالي.. وبالتحديد بعد الأربعين من موت فقيدة البلاهة ـ والمسالمة.. والجنان الرايق.. وهو يترنم بالأبيات التالية:

حبمبا.. كيفما قالوا.. وعادوا
عليك.. فأنت وسط القلب.. جمره!
وأنت على لساني.. كل يوم
إذا ما جاء ذكر العشق.. تمره!
كذلك: أنت في صدري تملّلي
برغم الضيق.. وسط الصدر.. صُرُّه
أخاف أفكها يوماً.. فأجلو
بها عن حبي المصرور.. سِرَّه!!
فكم في الصبح.. بعد العصر برضو
بجنح الليل.. في يومي.. وبُكْرَه!
تمنى قلبي الدقداق.. إني
أنا «أبدو» الذي جاكي بشُهْرُه!!
فهل تتذكرين لنا لَحوحاً
رَمَيْتُ بِهِ إليكي.. ذات مَرَّة؟
فقلتي. أَأَنتَ تشيتني خميرا!
أجبت، لحوحنا: عَطفٌ ونَظْرَه!!

وقـد جـاءت وَفَـاتُـكِ.. دونَ عِـلـمـي
فـإنـي كـنـت مـعـزومـاً.. يـسَـمْـرَه!!
فـسـامَـحَـكِ الإلـهُ.. فـأنـتِ فِـعـلاً
جـعـلـتـيـنـي: أَعـيـشُ.. عـلـى مُـغُـرَّه!!